YAHYA AL-QAISI

NOVEL

يحيى القيسي

الفردوس المحرّم

الفردوس المحرّم/ رواية عربيّة
يحيى القيسي/ مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الأولى، 2016
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بداية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **هاريت تيلور سيد**/ بريطانية.
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديجو برس**/ بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-630-4

رواية
NOVEL

يحيى القيسي

الفردوس المحرّم

إلى معلمي (ق. أ. س)

وقال لي:

افتح قلبك للحب، وعقلك للمعرفة تكن من الخالدين..!

إشارة:

قبل ألف عام، أسقاني شربة من نبيذ محبته، ما أزال دائخاً من فرط نشوتها إلى اليوم..!

يا للعجب مما جرى...!

لو لم أر كنوزها بنفسي، لقلت أضغاث أحلام!

لو لم أسمع موسيقى حروفها بأذني، وأتنشق عبق عطورها بأنفي، وأتلمّس مكامن أسرارها بيدي، وأتذوق فاكهة بساتينها بفمي، وألج أبواب أسوارها بجسدي، لقلت ما ذلك إلا تلبيس ووهم وضلال!

يا للغرابة من كلّ ما تمّ!

ذلك تقدير العزيز المتعال، يؤتي الحكمة من يشاء، ويكشف الحجب عمّن يريد، هو المتجلّي فينا بالصُّور، ونحنُ في غفلة، نيام أو معطلون في أسفل سافلين، بعد أن كنّا في أحسن تقويم، في عليّين، أو من - العالين -!

لا تؤاخذوني فيما أقول، ولا فيما أهذي هنا، فلا أكلّم الناس إلا رمزاً، وإنّي بعد ذلك أو ربما قبله ناسخ يُملى عليّ، لا

حول لي ولا قوة، لا أقدّم شيئا ولا أؤخر، إنما يلح الأمر عليّ في وقته، ويندرج في مقامه، حين يئين أوانه، فأخطّه دون تحوير ولا تبديل!

مرّة أكون هو، ومرّة أكون غيره، ومرّة أكون نفسي الأمّارة بالتساؤل والقلق، والتربص بالإشراقات إذا برقت، واللمع إذا هلّت، والإشارات إذا مرّت، والرُؤى إذا هطلت!

يا لخراب هذا العالم النائم إن لم يعرف ما عرفت!

تقولون لي: قد أطلت المقدمات، وملأتنا شوقاً لمعرفة ما جرى ويجري، وفكّ ألغاز العبارات، وهتك أستار التنزّلات، وأنا أمام جبل عظيم، أفكر كيف يمكن أن أنقله إليكم قطعةً قطعةً، وأريكم ما أرى منه، نظرة بعد نظرة، وصخرة بعد صخرة، لا بل وذرّة من بعد ذرّة!

أعذركم على قلّة صبركم، أنتم الذين لم تكتحل عيونكم برؤية تلك الجنّة المخفية عن الناظرين، فكيف بي أنا.. «بِالسرِّ إِن باحوا تُباحُ دِماؤُهم.. وَكَذا دِماءُ العاشِقينَ تُباحُ»!

هذا حال من ذاق وعرف ثم غرف فغرق، وتبدّل من حال إلى حال، حتى كاد يفنى عن الأعيان، ويغرق في عالم المثال!

انتظروا إذا.. إنّي معكم من المنتظرين، واصبروا حتى حين!

خيمياء معطّلة

أُصبت منذ صباي بالعزلة، وكثرة التأمل، والصيام أغلب الوقت عن الكلام، والنظر الطويل إلى صفحة السماء، بحثاً عن ملائكة تصعد إلى عليائها، أو شياطين تُرجم بشهبها، ولم تكن الطمأنينة تجد في داخلي موئلاً ولو ضئيلاً حتى تهبط عليّ قطعان الشك، وأسراب اليأس، فتبددها في كل الجهات، وتبقيني عارياً من كل يقين، وتائهاً عن أيّ درب!

كنت أناجي الله في الأعالي كي يسمعني، ويحمي ما تبقى عندي من نبض إيمان، فقد أوشكت الكتب التي كنت أقرأها، ونقاشات الأصحاب الصاخبة، وأسئلتهم المتشككة أن تقضي على ما فضل لديّ من سكينة، ووجدت في جلوسي إلى جهاز -الكمبيوتر- للكتابة على شاشته المضيئة ما يشرح الصدر، ويمنح الهدوء، لا سيما أنني تركت خيالي الشرس

يحلق بعيداً، ويسكب ما يريد لكي تغدو كتباً بين يدي الناس، ولكنّ أمري لم يتغير، وأحوالي لم تنقلب إلا في السنة العاشرة بعد الألفية الثانية من هذا العصر المُحيّر، حينما كتبت رواية سميتها - أبناء السماء - وقد أصابني من قُرّائها فيما بعد الكثير من القبول أو الإنكار، إذ كانت مثل مغناطيس هائل يجذب معه الغثّ والسمين، والمحبّ والكاره!

أذكر الآن أنّه جاءتني بعد صدورها نساء كثيرات قرأنها أو سمعن عنها يرغبن في الشفاء من أمراض غريبة، وحلّ المربوط من أجل الزواج أو الحبل، أو التخلص من الأطياف التي تسكن أجسادهن، أو جلب الحبيب الهاجر لهن، أو تفريق الزوج الراغب عنهن، وقصدني أيضاً رجال ذوو لحى كثّة يبحثون عن الخلاص من حظهم العاثر، وشباب في أول اليفاعة، بقلوب كسيرة، وعيون حائرة يتساءلون عن الله، ورأيت عجائز يبحثن عن إكسير الحياة حتى لا يكون للهرم عليهن من سبيل، وكنت أسمع وأضحك، وأكاد أحياناً أبكي على ما وصل إليه الناس من الهوان، والحيرة والبحث عن المعجزات، بل والرغبة بالاستعانة بعالم الجانّ، ولا ناقة لي في الأمر ولا حمار، ولا عصا سحرية لديّ كي تحوّل الحديد والحجارة إلى أكوام من الذهب، ولا مكنسة خشبية أمتطيها لأطوي المسافات، وأطير

فوق الجبال والمدن، ولا مصباح علاء الدين في جيبي كي أمسحه فيخرج لي جنّي آمره فيطيع، ويحقّق المعجزات، ولم أعثر على عشبة الخلود في الأرض السفلى، ولا اغتسلت في ماء - عين الحياة - .!

ما لكم كيف تحكمون...!

الحق أقول لكم ولا شيء غيره:

لست عليماً بحيل الخيمياء، ولا بفكّ أسرار الأرقام ومعرفة تآلف الحروف، ولا بفوائد النباتات والمناقيع والأشربة، وتراكيب العطور وروائح البخور، ولا بتأثيرات الكواكب والأفلاك، وتبدّلات الأهلّة، ولا بغموض أسرار الحجارة الكريمة والجواهر، وخواص المعادن، ونسب الأخلاط والعناصر!

قيل إني مشعوذ، استقيت كتابتي في صغري من ساحر جوّال كان يزور قريتنا، وقيل بل هو مجنون، وقيل هو حالم لا أساس لكلامه، ولا علوم لديه، ولا حقائق تسكنه، وقيل ما هو دون ذلك وما فوقه!

ولكن هل تحسبوني آبه لهذه الأمور؟

كلا وربّ الناس..!

اسمعوا إذا عجباً ما أقول لكم، ومن شاء فليصدق، ومن شاء فلينقلب على عقبيه، فقد جاءتني يوماً امرأة خمسينية،

قالت لي بعد مقدمات طويلة مرتبكة إنها عاشت فترة طويلة مع زوجها المغترب في شبه انفصال قبل أن تعود إلى البلاد مع ابنتها، وشكت لي طويلاً تلك الكائنات البشعة اللامرئية التي كانت تنقضُّ عليها كلّ ليلة، بعد أن تغوص في بحر النوم، وتبدأ بسماعها تئزّ في رأسها أزّاً، وتكلّمها بالهمس، ثم ما يشبه الصفير، وبعدها تفاقم الأمر، وأصبحت تلعق جسدها بألسنة لزجة دونما استئذان!

وصفت لي بدقّة، ما يجري، وكيف أجبرتها تلك الكائنات على النوم وحيدة في غرفة أخرى بعيداً عن غرفة نومها مع زوجها، وكيف تعرضت ابنتها فيما بعد للحالة نفسها من الهجوم اللامرئي الشرس، وأنها أصبحت لا تستطيع تزويجها، لأنّ كل طالب عروس يأتي إليها راغباً أوّل الأمر، ثم سرعان ما ينفر منها ويلغي مشروع الزواج، ولا يعود مجدداً دون سبب واضح رغم ما ظهر من جمالها الباهر، وكنت أستمع من هذه المرأة المسمّمة العقل وحكاياتها المجنونة كما لو أني أشاهد فيلماً سينمائياً يجمع ما بين الرعب والتشويق، وفي النهاية سألتها:

- سيدتي هل تظنين أنني طارد أرواح شريرة؟

- لا بدّ أنك تستطيع مساعدتي، أنا عرفت ذلك من كتابك!

- كتابي يعتمد على الخيال سيدتي ولا أساس له من الصحة!

- لكنّك على الأقل تصدق حكايتي أليس كذلك؟

- مممممم في الحقيقة يختلط الأمر لدي، لست مؤمناً تماماً بمثل هذه التوهمات، وليس المطلوب أيضاً أن تصدقي حكايتي بالمقابل، فقط استمتعي بها مثلما استمتعت بحكايتك!

- اسمح لي أن أقول بأنّني لا أصدقك...واضح أنّك قد قابلت كائنات من العالم الآخر!

- هههههه.....حسناً ربما أكون أنا واحداً من هذه الكائنات متشكلاً في جسد بشري، ما قولك...؟

- قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، بسم الله.. بسم الله، لا تمزح معي في هذه الأمور..أرجوك، أنا أصدق أيّ شيء!

لم تقتنع المرأة بشيء مما قلت لها، وبدت على وجهها سحب الخيبة من ردودي، وراحت تحدثني عن الشيوخ الذين زارتهم في القرى والمدن والمخيمات والبوادي بحثاً عن علاج، وفي كلّ مرّة تعود خائبة، بل وتُهاجم من جديد بقوة من تلك الوحوش التي تقبع في الظلال، وفي النهاية أخبرتني أنها اكتشفت طريقة للتعايش معهم، بل والاستمتاع بوجودهم

وفنونهم الخفية في انتهاك جسدها كلّ ليلة، رغم قراءتها للقرآن، والمعوذات، وتأديتها للصلوات!

نظرت إلى تقاسيم وجهها المرتجفة وهي تتحدث، وانفعالاتها الطافحة بالسذاجة وبالغرابة معاً، وقلت في داخلي منهياً اللقاء:

- مسكينة هذه المرأة..لا شك بأنّها مريضة، وتحتاج إلى طبيب نفسي، وليس إلى صائد حكايات مثلي.

في الحقيقة ثمّة أشياء تحدث عند بعض الناس تشبه كثيراً الأفلام الهندية، حيث من المسموح أن تجري الأحداث كما يريدها المخرج بالضبط، بناء على ما يغلي في رأسه من أفكار مجنونة، وكلّ تشابه مع الواقع أو الشخصيات هو محض صدفة!

تلك حكاية عادية قياساً بالفتاة التي كانت تطاردني من مكان إلى آخر كي أعلمها فنون السحر، وكيف تطير في الهواء، وتسير على الماء، وكيف كانت تبحث عن المشعوذين لكي تتعلم منهم..!

لا لن أخبركم كيف جاءتني ذات صباح بوجه منتفخ من كثرة البكاء، ولا تكاد تتحرك، إذ إن الرجل المحتال الذي ذهبت إليه في - صويلح - أشار عليها أن تتعرض للسع بضع نحلات

في ظهرها حتى يتقوى عندها النظر، وبالتالي كادت تفقد حياتها تماماً من أسراب النحل التي وجدت في ظهرها مرتعاً مجانياً لممارسة فنون اللسع وغرز الإبر!

لا لن أقول لكم أكثر، فليس هذا أوان ذلك، ولكنّها قصة طريفة قد يأتي ذكرها فيما بعد، وربما أخبركم أيضاً عن ضابط الأمن ابن القبيلة الكبرى الذي قادني إلى - الأغوار - لأختبر له بعض الدفائن فيما فوهات المسدسات تحيط بي من كل جانب، وأنا ألعن في أعماقي النقاد الأوغاد الذين تحمسوا لدفعي لكتابة الرواية، وثمة الصحفية المجنونة التي تسمّم دماغها من كتاب -شمس المعارف الكبرى- وأودى بعائلتها الواحد تلو الآخر، والطيار الأسترالي الذي التقيته صدفة في أحد شوارع عمان وهو ينتظر نهاية العالم، ويريدني أن أكون معه من الناجين!

يا ربّ لا تجعلني أنسَ بأن أخبركم عن صديقي المجذوب والمعتزل في - وادي شعيب - وحكاياته مع شيوخه المجاذيب الذين تتلمذ على أيديهم، ورأى منهم الخوارق والأعاجيب التي تجعل الخيال نفسه يجلس بتواضع أمام حكاياته، ولا ينبس بحرف، مصدوماً وخجلاً مما يسمع!

و-باتي- الأميركية التي جمعتنا في مزرعة قصية في

جبال -جلعاد- كي نوقظ الحامض الأميني الذي في أجسادنا ونصبح من البشر الخارقين، وصديقي دكتور الآثار المهووس بالبحث عن كنوز الاسكندر الأكبر، ومهندس العمارة اللبناني الذي ترك الطائفة الشيعية، وأصبح يلقب نفسه باليماني، وقد كان يرسل لي الإيميل وراء الإيميل داعياً إياي لأكون من أتباع - المهدي المنتظر - الذي كلّفه بالدعوة مندوباً عنه في بلاد الشام قبل ظهوره القريب، وإلا سيحل عليّ الويل والثبور!

يا للورطة التي أوقعت نفسي فيها بكتابة تلك الرواية التي أصبحت تطاردني ليلاً ونهاراً، فيما كان الخيال فيها يختلط بالحقيقة، والبحث بالتأويل، لكن ما أقل المتأملين وما أكثر الحالمين والمهووسين!

وكلّ ذلك يهون، وأمره يسير، وقابل للتصديق أو الكذب، الإيمان أو الكفر، القبول أو الرفض، لولا تلك الرسائل الغامضة التي وصلتني عبر - إيميلي - ذات يوم من العام ٢٠١٢م فيما العالم يتوجس خيفة من نهاية مفترضة للأرض، إذ قلبت أفكاري القابعة في جوف عميق من دماغي، وحولته إلى خليّة نحل تطنّ كلّ حين، وأكاد من فرط طنينها أن أجن!

غبطة باذخة

«..... يمكنك أن تدعوني بما تشاء، ليكن - أحمد الحسيني - مثلاً، صديقك السابق المحيّر، ربما أكون هو حقاً أو أستعير اسمه، لا فرق، وربما اتخاذ هذا الاسم يريحك أكثر، ولكن اختلط عليك الأمر أيضاً من قبل، ولم تعد تميز ما إذا جعلت الرجل يموت في نهاية حكايتك الطويلة المتشعبة، أو يتلاشى مع الشخصيات الأخرى بطريقة غامضة، ولا بدّ أنّك ما تزال تفكر بالبحث عنه في شوارع القاهرة وأحيائها المكتظة، وصدقني قد تجده بانتظارك هناك هذه المرة!

دعني أقل لك أمراً مهماً:

لقد تابعتك منذ خمس سنوات، واقتربت من عالمك أكثر مما تظن، ربما كنت أقرب إليك أحياناً من قميصك الذي ترتديه، حتى شعرت بذلك القلق الذي يأكل رأسك، ولفحتني نار تلك

الشعلة التي تترنح في أعماقك، وأرّقني ذلك التوق الذي يقضّ مضجعك للبحث والمعرفة، وإن كان الحسيني قد أعطاك حقيبة جلدية سوداء فيها الكثير من الأسرار، فإنّي سأفيض عليك بقدر وسعك من المعارف التي قد تجعلك تغير وجهة نظرك فيما كتبت، وربما تنسف خيالك المطمئن نسفاً... فهل أنت مستعد؟

تذكر دائمًا أن الموافقة تعني أنّك رجل شجاع يملك رأيه، ولديه -الإرادة الحرة-، وغير ذلك سيكون الدليل ناصعاً على جبنك، وتطامنك، وأنّ الكتابة لديك مهنة فقط، ولا علاقة لها بوهج روحك، وأنّ شخصياتك ورقية زائفة لا حياة فيها!

الفارس فقط من يحصل على الحقائق ويحوز المعارف!

والجبان من يركن إلى البقاء بين الحفر، ويقنع بالوديان دون الجبال!

وتذكر أيضاً أنّ الفروسية مقام يجمع بين النبل والشجاعة، أي علو بأخلاق، وإقدام ببسالة، دون تهور ولا نذالة!

سأتركك الآن ولكن أودّ منك أن تتأكد من شيء، وهو أن كلّ ما قلته لقرائك في روايتك عن الروس الذين اختفوا قرب الأهرامات، وكاثلين معلمة الريكي التي تعالج الناس، والأب حنّا صاحب الخوارق، والشيخ المحبّ صافي القلب، والذين يطاردون الكنوز في جبال عجلون، قد يكون حقائق صافية لا

تشوبها شائبة، وليس مجرد أحداث و شخصيات من نسج خيالك، وتذكر دائما أن الواقع نفسه هو بالتأكيد أشدّ غرابة من كلّ خيال، وقد لا يكاد يخطر على قلب بشر....».

لو لم تكن هذه الرسالة موثّقة في بريد رسائلي لقلت إنني أهذي، ولكنّي لم أملك أمام لهجته الحازمة، واستفزازه لي، ثم عروضه المغرية، ومعرفته التفصيلية عنّي وعن أحمد الحسيني ورفاقه في كتابي، إلاّ أن أقبل عرضه، ومنذ تلك اللحظة، ما عادت الأمور مثلما كانت عليه، فكأنّما أصبحت مثل رقيقة إلكترونية للتخزين يتمّ شطب ما فيها من معلومات سابقة، أي عمل - فورمات - لها، وإدخال معلومات أخرى جديدة!

كانت المعارف التي تصلني تسبّب لي غبطة هائلة، وتهون أمامها كلّ اللذائذ الجسدية، والمسرات الحسّية، فهتك الحجب، ومعاينة الأسرار، والاقتباس من الأنوار، شيء علوي، باذخ ومدوخ، وينثال في الأعماق مثل مطر مغدق على أرض عطشى!

لم أعد أميز فيما كنت أكتب إن كان ذلك من رسائله التي كانت تهطل عليّ تباعاً، أو تتباعد بشكل يبعث على اليأس حتى أظن أحياناً بأنه نسيني، أو ربما يتسرب الشك إلي أنّه لم يتصل بي أصلاً، وما جرى كان محض وهم، وقد تكون السطور

التي أمـــامكم بعض مـــا هبط عليّ من الأفكار، أو مما رأيتـــه بنفسي، وخبرته بذاتي، أو قرأته في الكتب التي تحيط بي من كل جانب، وتقاسمني سريري وطاولة الطعام ومكتبي وحتى سيارتي وحقائب السفر!

دفائن محروسة

لم أكن أعرف حجم الحضور الهائل لكلّ ما هو خفي وماورائي في حياتنا اليومية، حتى اكتشفت ذلك بنفسي، إذ كلّ إنسان على ما بدا لي لديه جانب باطني، يكاد لا يظهره على أحد حتى يأتي أوان من ينبشه من أعماقه ويخرجه إلى العلن لاسيما حين يصطدم بموت عزيز، أو بحدث مدوٍّ يتركه غارقاً في دوامة الحيرة!

حتى أصدقائي الذي يتبجحون بأنهم ملاحدة لا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون، ولا بتدبير محكم له، ويتندرون على المؤمنين «المتخلّفين» كما يطلقون عليهم، تمرّ عليهم لحظات كثيرة، ينكصون فيها إلى البئر السرّي العميق في ذواتهم كي ينقذهم ولو قليلاً من الحيرة التي تنتابهم، والأحداث التي تعصف بهم، وتجعل الحليم فيهم حيران لا يلوي على شيء!

التقيـــت الدكتـــور جمال، ذات مرّة في ندوة ثقافية عن -كنوز الأردن الأثرية-. أعجبتني تحليلاته، وطريقة تفكيره، وحماسه العجيب، وعرفت بعد أن اقتربت من عالمه أكثر أنه خريج إحدى الجامعات البريطانية العريقة في تخصص الآثار، ولديه تفسيراته الخاصة بشأن ما جرى للحضارات القديمة، غير أنّه لم يكن مستقراً في عمل، حتى يتركه لآخر، فقد كان كما بدا لي مزاجياً وحالماً معاً، لم تستطع السنوات الطويلة من عيشه في - كارديف -، وزواجه من - ويلزية - هناك، وترمله لاحقاً أن تجعله ينسجم مع معيشته في عمان، واكتشفت هوسه الخاص بأمرين؛ أولهما البحث عن الدفائن، لا بل تورطه الأكيد بالذهاب إلى مغامرات عديدة مع عصابات البحث عن التحف القديمة والكنوز الغابرة في شعاب الأردن وجباله، أما المسألة الأخرى فهي هوسه بالنساء، وقد كان خلطه بين الأمرين مسألة عادية إذ سرعان ما ينتقل في حديثه بين الموضوعين دون مبرر إلا ما يعتمل في أعماقه لحظتها!

كان يصف لي بما يشبه الخيال رحلاته لمطاردة الدفائن مدججاً بالخرائط والإشارات وفريق من الحالمين أمثاله، ولم أستطع أن أستوعب كيف يمكن للباحث أن يكون ضد مبادئه، ويغريه بريق الذهب، هذا إن وجده أصلاً، فلم أشعر يوما بأثر

مغامراته الطويلة على تبدل حياته نحو الثراء، بل بالعكس بدا لي أنه يجاهد في سبيل لقمة العيش، ولهذا قرر أخيراً أن يهجر البلاد، ويعود إلى بريطانيا بعد أن أضنته متطلبات الحياة اليومية بلا رحمة.

وقال لي مرّة:

الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن، ولا مقام لي في بلد يحتضن بحنان خمسين جنسية من اللاجئين القادمين حتى من الصومال والبوسنة والهرسك والواق واق، ولا يحنو ولو بقطرة على أبنائه الذين أفنوا شبابهم ما بين التعليم والجيش!

اسمعني يا زلة: بلدنا مأكول مذموم مثل خبز الشعير كما تقول أمي، هذا من ضيوفه، فما بالك ببعض أهله الذين أكلوه حيّاً ورموه أشلاء من شدّة الفساد، ورغم الإدارات التي أُنشئت لمكافحته، فإنّ هذا السرطان لا يرحم، ويستشري بشدة!

ثم فجأة تتغير نبرات صوته، ويأخذ بالشتائم المختلطة برذاذ بصاقه، خصوصاً والمقام يتسع لمثل ذلك:

- يا عمي البلد بيعت ممن يعتبرونها فندقاً أكثر من كونها وطناً، كلنا نعرفهم، ولا نستطيع البوح، وإن بحنا لا أحد يسمع!

لعنة الله عليهم، دعنا من سيرتهم العفنة!

أما في لحظات هدوئه، وسرحانه في الخيال الملون فقد كان

صديقي الدكتور يحدثني عن كهوف تحت الأرض في منطقة الكرك، وأخرى في جبال عجلون تحتوي على ما يشبه المدن السرية، فيها أعمدة وممرات وأقبية وغرف حصينة وقاعات فسيحة تحتوي على كنوز لا تقدر بثمن!

كاد يبكي أمامي ذات يوم، وهو يصف التماثيل المصنوعة من الذهب الخالص بالحجم الطبيعي، والصناديق التي تحتوي على العقيق والزبرجد والياقوت واليشب وعين الهر واللؤلؤ وأندر الحجارة الكريمة وأنفس المعادن!

قال لي: تصور فقط لو أن الدولة تسمح بفتح هذه المغارة وحدها لأصبحت مديونية الأردن لدى البنك الدولي صفراً، ولعاش الناس في رخاء!

ثم انفجر من جديد:

يا رجل لا أحد يريد لهذا البلد أن يعيش في بحبوحة، هل تريدني أن أصدق مثلاً أن الدول المجاورة لنا جميعها تغصّ بحقول البترول وبلدنا لا شيء فيه. الأمر واضح. ثمة قرار سرّي منذ تأسيس الدولة بداية العشرينيات بأن نعيش تحت حاجة الضغط، وقبول الصدقات من جيراننا البتروليين، حيث نقبل في النهاية أن تكون بلدنا ملجأً لكل الهاربين من الأزمات والحروب، وستثبت لك الأيام صدق ما أقول...!

بدا لي مدججاً بالقهر ومغلوباً على أمره، وإن لم يغادر إلى هجرة جديدة سيصبح مثل قنبلة مفخخة قابلة للانفجار، وقد تقتل ذاته، أو من حوله في أي لحظة، وعجبت من رجل يعيش في بلاد الغرب التي تتسع للجميع، ولا يحتمل فكرة أن تكون بلاده كذلك، وقلت في نفسي، أيّ شيزوفرينيا تحل على أبناء العرب بلا هوادة فلا تفرق بين متعلم أو أمّي!

كنت ضعيفاً أمام وصفه الدقيق، وتحمّسه للأمر حتّى كدت أشاركه البكاء على حالنا، غير أنّي لم أفهم قطُّ لِمَ الدولة عندنا غبية إلى هذه الدرجة، ولا تقوم بفتح تلك المغارة، أو تستخرج ذلك الذهب الأسود الذي يتلاطم تحت صحرائنا الجنوبية أو ربما في أعماق البحر الميت؟

تلك أسئلة لم يستطع أن يجيبني عليها بشكل مقنع، طيلة معرفتي به، كانت إجاباته دائماً غائمة، مقتطعة من سياقاتها، وجمله مرتبكة، على الأقل بالنسبة إلى الكهوف التي تحتوي على الكنوز، إذ لم أكن مهتماً بالمسائل السياسية التي طرحها ولا سيما ما يتعلق بإثبات وجود النفط بكميات هائلة كما قال، وكنت أتجنب أيضاً لحظات حنقه حتى لا يطالني شيء من رذاذ بصاقه وهو ينفثه بشدة مع كلمة -إتفووو....-

كان ينسب أمر فتح الكهف لما يطلق عليهم - الرصد -

الذين يحرسون بوابته، وهم كائنات لا مرئية كما أخبرني ذات مرة، ولكنّ أثرهم قد يكون واضحاً في مهاجمة الباحثين، والتسبب لهم بالأذى من الشلل إلى الجنون أو الموت أحيانا كما ادّعى، ومرة يقول بأنّ هذا - الرصد - نوع من الحيل العلمية أشبه بالمصائد الميكانيكية للداخل إلى الكهف مصممة من قبل حضارة متطورة حيث لا يستطيع أحد من الغرباء أن يدخل إلى هناك، ومن ذلك أن تهبط الدرجات بالداخل إلى بئر عميق فيهوي فيه دون رجعة، أو يسقط عليه حجر من السقف فجأة ويتركه صريعاً، أو تهب عليه ريح السموم، ومرة يقول إن الموضوع أكبر من الدولة نفسها، فثمة أقمار صناعية تراقب هذا الكهف بحيث لا تسمح لأحد بالدخول إليه، ومرة يحيل الأمر إلى شخصيات عليا بالدولة تتولى هذا الملف ولا تسمح لأحد بالاقتراب منه، وهكذا كنت أخرج كلّ مرة بحكاية مشوّقة، ولكن بدون أيّ قطعة ذهب، أو حتى حجر كريم أو معدن نفيس أو خسيس!

قلت له مرة : يا رجل لو تسمع الجامعة التي تخرجت فيها أنك تؤمن بالجنّ الذين يحرسون الدفائن، وأنت أستاذ جامعي في الآثار والحضارات القديمة فمن المؤكد أنها ستعيد النظر في منحك شهادتها الأكاديمية!

ضحك طويلاً وقال: لو تدري من يبحث معي عن الدفائن لعرفت أنّ الأمر لعنة طامة، لا تستثني دكتوراً ولا سائق بلدوزر، ولكنّ موضوع الجنّ موجود بالقرآن، وأنا أؤمن به، بغض النظر عن شهادتي، الأمر حقيقي، لقد شاهدت بنفسي بعض ما يظنه الناس خرافات في الليالي المظلمة، تلك حكايات لن يصدقها أحد يا عزيزي- الملحد - وقال كلمته الأخيرة مختلطة بسخرية جلية، فهو يعرف أن هذا اللقب لا ينطبق عليّ لكنه في كل الأحوال لم يكن مطمئناً إلى أفكاري الدينية تماماً، خصوصاً أنه كان يتركني أحياناً بحجة الذهاب إلى صلاة العصر أو الوضوء لصلاة المغرب دون أن يجدني له من التابعين!

كنت أشعر بأنّ الحقائق في حكايات الدكتور تختلط لديه بالخيال الجامح، وأيضاً بالرغبة الباطنية في أعماقه كي يعثر على كنز يجعل منه ثرياً كبيراً حتى نهاية حياته، مرة خصّص لي شرحاً وافياً عن - الزئبق الأحمر - وأنّ صديقاً مقرباً له يملك قطرات منه، ويريد بيعها بخمسة ملايين دولار، كان يتحدث إليّ لعلي أجد له زبوناً ثرياً يمكن أن يدفع هذا المبلغ لشرائها، وقلت له حينها: يقال بأن هذه المادة من الأوهام وغير موجودة أصلاً..!

قـــال لـي: بل أنت الواهم، وإن أردت ســـأريك إياها، أنا شاهدتها بنفسي..!

وراح يكشف لي عن ميزاتها، فبعض الأثرياء جداً، ورؤساء الدول، حـقنوا أنفـسـهم ببـضع قطرات منهـا ؛ لأنهـا تسـاعـد الإنسان على البقاء شاباً رغم تقدمه بالعمر، وقال لي مرة بأن بعض الرؤساء العرب وأصحاب الملايين استخدموا هذه المادة، وذكر لي بعض الأسماء الشهيرة بصوت خفيض، ثم أضاف: ألم تشاهد وصولهم إلى الثمانيات وبقاء أجسادهم مشدودة، ووجوههم غير متغضنة، إضافة إلى ما نسمع عن فضائحهم الجنسية..!

ولكن الأمر المهم في الزئبق الأحمر هو أنه يتم بيعه للجن، مقابل خدمات معينة يقدمونها لمن يمنحهم إياه، أو أموال طائلة، وأنّ هذه المادة ضرورية لهم، ويحرصون على الحصول عليها بأي ثمن..!

غير أن هذه الحكايات لم أجد لها سنداً في الواقع، رغم أنّ طريقة سرد الدكتور للأحداث، والمغموسة بالكثير من الأيمان تجعل السامع يشعر بأنّ الأمر كله بين يديه، وأنه جاهز في التوّ والحال لأن يريك المغارة التي تحتوي على كنوز علي بابا، أو زجاجة بها قطرات من إكسير الحياة، أما مسألة بيع شيء

محسوس مثل الزئبق الأحمر لكائنات غير محسوسة فتلك معضلة سألته عنها، فكانت إجابته بسيطة: السحرة وبعض الروحانيين يقومون بهذه الوساطة لهذا يجب علينا أن نبحث عنهم أولاً..!

لكن حكاياته عن الأيام التي قضاها في منطقة جبل نبو قرب - مادبا - مع مجموعة من الباحثين عن قبور سرّية برفقة جنرال إسرائيلي، وباحثة في التصوف من تل أبيب ومجموعة من المغامرين من عُمان والمغرب إضافة إلى المستضيفين الأردنيين، فهي تحتاج إلى أن يأخذ المرء نفساً عميقاً، كي يتهيأ لمعرفة السر الذي طوته القرون كما أخبرني، وخفي طويلاً عن العيون!

وهذا سيكون له مقام للبوح في أوانه..!

حدائق رمادية

وصلني هذا الإيميل الجديد:

سأكتب لك هنا بدفق الماء الجاري في الأنهار، لا أدقّق عباراته، ولا أعيد تدوينه، يصلك وليداً في التوّ والحال، لأنّي لو راجعت نفسي فيه، لشطبت وبدّلت، وقدّمت وأخّرت، وربما ندمت، فقد أزف الوقت، وتغيّرت الأحوال، والناس في غفلة، نيام على موائد اللئام، يتم التحكم بهم مثل الآلات، وهم لا يدركون، قلّة منهم عرفوا جانباً من الحقيقة، وكثير غيرهم رفضوا حتى أن يسمعوا النصيحة، كالدّواب أو أضلّ، وأقسى من الحجارة، وما أنت إلا مثلي، حامل شمعة في حلكة الليل، لعل هناك من يرى قبسها، فيأتي ويشعل شمعة أخرى، حتى يأتي أوان العصر الذهبي وظهور النور الأسمى، والحقّ الأجلى، فتتلاشى العتمة، ويحلّ في الكون السلام!

قلت لك من قبل إنّ البشر نيام، وهم في حقيقة الأمر في حالة أسرٍ حقيقية منذ آلاف السنين من قوى أكثر مكراً وعلوماً منهم، فقد تعطلت قدراتهم، وأصبحوا مثل مركبات خربة تسير على الأرض بسرعة بطيئة، بعد أن كانت تطير في الأعالي بشكل مذهل!

دع عنك كتب المدارس التلقينية، وتخاريف الجامعات من أن الإنسان تطور من نجمة بحر، أو أن جدّه الأول كان قرداً قبل ملايين السنين، وأنّه بقي يتعلم حتى أصبح على ما هو عليه الآن، تلك نظريات لا تصمد أمام الكنوز المخلوقة في الإنسان، والعبقرية في صنعه وإبداع تفاصيله، إضافة إلى الحضارات الغابرة المتطورة التي أنجزها، ولهذا فقد وجدت الكائنات كما هي، ولم يتطور شيء من آخر، بل هي أجناس مختلفة وجدت من الصانع الأعظم بهذه الطريقة، فلم نر قرداً واحداً اليوم يحاول أن يرقى إلى أن يكون إنساناً، ولا قروداً أخرى لديها نزعة تطور تدريجي حتى عبر آلاف السنين حيث تقترب من البشرية سواء في اللغة أو التفكير أو التنظيم، فلِمَ توقّف التطور في عهدنا لو كانت تخاريف – داروين – صحيحة!

لا بد من حلقات مفقودة من هذه القرود اليوم حتى نصدق الأمر!، ولكن الأمر يا صديقي مؤامرة كبرى على البشر، قد

صدقها بكل أسف كثير من البشر أنفسهم وروجوا لها، فطوبى للمستيقظين..!

ثمة جهات خفية في هذه الأرض تريد أن يظل الإنسان عبداً لها، وأن لا ينهض من إغفاءته التي طالت، ولا ينتبه إلى ما فيه من كنوز وقدرات مذهلة، ودعني أُطلق على هؤلاء المسيطرين علينا اسم - المستحوذون - حيث يحاولون حجب كلّ نور، وتدمير كلّ من يحاول كشف أستارهم، وتبديد ضلالهم!

أحتار من أين أبدأ معك، لكن كلّ ما تعلمته تقريباً، هو غيره!

لقد تمّ تضليل البشر بطريقة ممنهجة، في العلوم، والجغرافيا، والدين، والتاريخ، وحتى الطب، وكلّ ما من شأنه أن يعرّف الناس بالحقائق، ويوقظ قدراتهم الكامنة. ثمّة أكاذيب يتم بثّها صباحاً ومساءً، في الصحف، والقنوات التلفزية، وأفلام السينما، وفي إعلانات الشوارع، وكتب التلاميذ، وثكنات الجيوش، والمعابد، والمعاهد والجامعات والمؤسسات!

ثمة اشتغال خفي على أن يشرب البشر جميعاً من قناة واحدة، ويخضعون إلى ما يشبه التنويم المغناطيسي ليتم التحكم فيهم بسهولة، وكلما جاءهم - معلم - ليوقظهم من سباتهم

الذي طال، وليشير إليهم كي يكتشفوا ما أودع الخالق فيهم من قدرات هائلة طردوه أو قتلوه أو اتهموه بالسحر والجنون!

أخبرني كم قتل البشر من الأنبياء والمصلحين والعلماء والقديسين والمفكرين جهلاً أو حسداً أو غيظاً..!

حتى أولئك الذين تكون في أجسادهم خاصيّة متيقظة، أو حواس حادّة، فيرون أبعد، أو يسمعون أكثر، أو يستشرفون المستقبل، يتم التعامل معه كأشخاص غرباء، ينبغي التخلص منهم، لأنّهم لا يشبهون القطيع.

هل سمعت بحكاية أولئك القوم من العميان الذين كانوا يعيشون في جزيرة وحدهم، إذ زارهم يوماً رجل مبصر، وبدأ يقصّ عليهم حكايات فاتنة عن الجبال الشاهقة والسماء الزرقاء والطيور الملونة التي تحلق في الأعالي والحدائق المفعمة بالورد والنابضة بالحياة، وهم أسرى الدهشة لكل ما وصف لهم، فهم لا يعرفون مثل هذه الأشياء، وكأنّه ينقل إليهم قصصاً من عالم خرافي ساحر، ولكنّ أمر هذا الاندهاش لم يطل إذ سرعان ما كادوا للرجل المغاير لهم حتى فقأوا عينيه اللتين يرى بهما كل هذه الأشياء الجديدة عليهم، فأصبح بعد ذلك مثلهم يشبههم تماماً، ويمضي وقته قابعاً في عالم رمادي بائس بلا حكايات جديدة، وقد غدا صامتاً قد أخرسه العمى إذ من ألف

النور ليس كـمن عـاش في الظلمـة، وهكذا إذن من يكون هنا على الأرض أعـمى عن المعـرفة، فسـيذهب هناك إلى العـالم الحـقيـقي وهو أعـمى أيضـاً وأشـد توهاناً، وما أنا إلا باحث عن المبصرين، أو الذين لديهم رغبة بالإبصار من الذين استعصوا على التدجين في جزيرة العميان هذه حتى نرى العالم بشكله الحقيقي لا من وراء الحجب..!

آسف على كل هذا التنظير فـمعـارفك التي في أعـماقك هائلة أيضـاً، ومـا أنا إلاّ رجل يسـعى إلى التـذكـيـر فـقط، أي تذكيرك بما أنت عليه، وفتح بوابات معرفتك بالتأمل والأسئلة الصادمة، فعلى سبيل المثال، دعني أخبرك بأنك أنت نفسك وقعت ضحية تضليل تلك الجماعة الخفيّة من المستحوذين ومكرهم حين ظننت بأنّ العلماء الروس الذين جاؤوا إلى مصر في الستينيات ثم عادوا إليها في الثمانينيات، واختفوا قد اكتشفوا طريقة لتواصلهم مع من سميّتهم بنفسك -أبناء السماء- من الحضارات المتطورة للكائنات الأخرى التي تعيش على بعض الكواكب، وأنّ الأطباق الطائرة والمركبات الفضائية التي نراها هي من صنعهم، وتعود لحضارتهم!

دعني أخبرك بأنّه قد جانبك الصواب فيما ذهبت إليه، وبالتالي فقد اجتهدت واخطأت، ولوجه الحقيقة فقد تمّ

اختطاف هؤلاء العلماء من قبل أولئك الأشرار الذين يحكموننا، فحين اقتربوا من معرفة الحقائق السريّة، والولوج إلى أعماق المعارف المحرّمة على المستعبدين، فقد تمّ القضاء عليهم بالخطف وتحويلهم إلى عبيد يخدمون بعلومهم هذه المنظومة السرّية للمستحوذين!

للأسف يا صديقي لم يصعد هؤلاء أبداً إلى كوكب آخر، ولا يعيشون اليوم هناك مع كائنات فضائية ذكّية كما صورت أنت لنا الأمر، وكما تنشغل أيضاً أفلام هوليوود التي ينتجونها بمثل هذا التضليل!

لا بد أنك صدمت أليس كذلك؟

لو قلت لك ما هو أكثر من ذلك لربما غبت عن الوعي!

دعنا الآن نُعد تركيب قطع -الليغو- من جديد!

اعلم بأنّ أكذوبة الكائنات الفضائية المتطوّرة التي تزور الأرض وتريد الخير لنا قد انطلت على معظم أبناء البشر، ولكنّ بعضهم لا يؤمنون بوجود الأطباق الطائرة أصلاً، وأنها محض تصوير تلفزي في استوديوهات لصناعة الأفلام، والحقيقة ليست هذه ولا تلك، إذ لا يراد للبشر أن يعرفوها، لهذا يمعنون في التشكيك والقمع للمعلومات الحقيقية، وينتجون الأفلام السينمائية تباعاً لترسخ عند الناس صوراً نمطية عما يدور من

حولنا من أمور غامضة، أو -ملفات إكس- كما يسمّونها، ويتحكمون في الإعلام وكلّ ما يبث من أخبار وصور، ويفسرون لنا ما يشاؤون من الأحداث، وعلينا السمع والطاعة، والتصديق لكلّ أكاذيبهم العفنة..!

يريدون يا صديقي أن يبقى - سوبرمان - شخصية خرافية في الأفلام فقط، يشاهدها القطيع فينبهر بها، ويخرج حالماً أن يراها، مخدراً لساعات قليلة قبل أن يعود إلى واقعه الأرضي المحبط، وما يدري أنّ في كلّ فرد منا هذا - السوبرمان - على الحقيقة لا التخيل، بل أشدّ منه قوة وأكثر تطوراً، ويريدون أن تبقى - حرب النجوم - بما فيها من مركبات معقدة، ووسائل اتصال مذهلة حبيسة الاستديوهات وقاعات السينما المظلمة، وقس على ذلك من بقية الموجة الكاسحة من الأفلام التي يبعثون من خلالها الرسائل الخفية دون أن يكون هناك من ينتبه!

إنّها يا صديقي منظومة متكاملة من التضليل والخديعة، يقف خلفها مجموعة من البشر الأشرار الأذكياء إن أردت أن أكون دقيقاً، ويدعمهم من هو من غير البشر - وذلك أمر ستعرفه ذات يوم - وهؤلاء أشدّ قوة وذكاء وفتكاً وأكثر شراً.

دعني أطلق عليهم هنا وصف - الكيانات غير البشرية - وتلك حكاية سأخبرك ببعض ما أعرف من أمرها لاحقاً، أما سيّدهم فهو كائن خارق ومارق بعمر طويل وقدرات على التشكل بالصور والظهور عبر الأزمنة، وهو منذ قرون سحيقة يحكم هذا العالم، وما أغلب البشر إلا عبيد له بعد أن غرقوا في نسيان أصلهم السامي إلا قليلاً منهم كانوا من الناجين!

تذكر أيضاً أن تفتح عقلك وقلبك لما أقول، فالإنكار لا يجدي أبداً، الإنكار ليس علماً يستند إليه، أو يُردّ به، إنما حالة من النكوص إلى حصن الذات الخادع هرباً من معرفة الحقيقة، وما عرفتك إلا باحثاً تتربص بكل حقيقة دقيقة، ولو كانت من حولها نيران شهيقة، وطرقها مضيقة، كما قال الشهيد المصلوب لأجلها - الحلاج - ذات يوم .

ولهذا يقول الناس عادة - هذا ما وجدنا عليه آباءنا - لتبرير كسلهم عن معرفة أي شيء جديد، وركونهم إلى المعارف المطمئنة البالية، ولكن الحقيقة تحتاج إلى فرسان لحمل كنوزها، وليس إلى قطيع من الخراف المطأطئة الرؤوس، والتي تقاد مسرغة إلى المقصلة..، فافهم!

أرواح سامية

جلسنا أمام – باتي – القادمة من أميركا مثل أطفال صغار في مرحلة الروضة، نستمع إلى ما تجود به علينا من الحكايات المدوّخة عن قدراتنا الخارقة التي أصبحت معطلة. كنّا في مزرعة نائية عن صخب المدن، والطاقة السلبية التي تعشعش في كلّ الزوايا وتجتاح أغلب الناس، هناك بعيداً في أحراش -جلعاد-، ولا بدّ أن الهواء المشبع بالأكسجين النقي، وكلمات باتي الرتيبة، وأوامرها الهادئة بين الحين والآخر للتمدد وأخذ:

شـــــهــــيق... زفـــيـــــر.......شن........ ه.....

ي..........ق....ز...ف....ي....ر

إضافة إلى الموسيقى الخافتة المهيأة أساساً للولوج بنا إلى عالم آخر قد قادت أغلبنا إلى الإغفاء، لا بل علا شخير بعضنا من النوم العميق!

وفكرت وأنا أتمدد على حصيرة قش بين نحو عشرين امرأة ورجلين -أغلبهم من ضيوف البلاد الأجانب الوافدين إليها- باللعنة التي حلّت عليّ، أو بالجنون الذي هيمن على عقلانيتي، وقادني إلى مثل هذه التجربة.

كان صديقي الدكتور جمال، المتورط حدّ النخاع في البحث عن الدورات المتخصصة في التنمية البشرية، والبرمجة العصبية، والعلاج بالطاقة، والتداوي بالأعشاب، وتأثيرات الفلك والحجارة الكريمة، ومطاردة المشعوذين، والدفائن قد جرّني جرّاً إلى تلك الدورة، مغرياً إيّاي بتجربة لا يمكن تكرارها، فالمعلّمة - الروحانية - جاءت خصّيصاً من بلاد العم سام البعيدة لكي تعطي هذه الدورة النادرة في تنشيط الحامض الأميني للإنسان، والله أعلم متى يمكن أن تعود مجدداً، وبدت لي الفرصة نادرة، والموضوع مثيراً للاهتمام، رغم أن الدكتور قد بدا متحمساً أيضاً للتعرف على -النساء الجميلات- المشاركات في الدورة ليضرب عشرين عصفوراً بحجر واحد، وهو أمر شعرت حياله بالغثيان من شدة فجاجته وخلطه..!! وهكذا بعد محاضرة طويلة استمرت حتى منتصف النهار و-باتي- لا تتوقف عن الكلام، جاء أخيراً دور التأمل وتمارين التنفس العميق، ووجدتني ممدداً أقتات على تلك الحكايات الذهبية

التي جعلتني أصدق لوهلة أنني سأغادر هذه المزرعة الجبلية التي تئن من وطأة الهدوء إلى بيتي في عمان، طائراً على طريقة سوبرمان متخلياً عن سيارة الدكتور جمال المتهالكة التي أتينا بها!

قالت - باتي - التي بدت ضخمة الجسم على غير ما عهدنا في المعلمين الروحانيين من الجسم الرهيف، والنحافة من كثرة الصيام واليوغا - وسأضع خطوطاً كثيرة تحت كلمة المعلم الروحاني التي أصبحت منتهكة في هذه الأيام من كثرة الأفّاقين الذين يستخدمونها بعد دورة قصيرة لثلاثة أيام أو أقل، وصرت كلما أسمعها أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وشر الكذبة والمشعوذين، فالمعلمون الحقيقيون لا يطلقون على أنفسهم - ماستر - أو - غراند ماستر- أو - غورو - ولوجه الحقيقة لم تكن - باتي - تحب أن يناديها أحد بذلك:

«كنت منغمسة أوّل شبابي في الحياة الصاخبة، وتقلبت أيّامي بين هزائم كثيرة وأفراح ضئيلة، وكان ثمّة رؤى تطاردني بالمنام، وتتكرر كثيراً، حتى اختلط عليّ الواقع بالخيال، والنوم بالصحو. كنت أحسّ بأنّ ثمّة من يراقبني، بل ويشاركني بيتي، كان إحساساً حاداً، رغم أنني لم أر أو أسمع أيّ شيء، وشعرت كما لو أنّ للإنسان حواس أخرى غير الخمس التي

نعرف، ولن أطيل عليكم كثيراً عن ولوجي في هذا العالم الأثيري، والخبرات التي قادتني اليوم لأكلمكم من هذا المكان الجميل الذي يبعد آلاف الكيلومترات عن بلدي، فقد أصبحت أشعر بأنّ الكون كله موطني، وأن البشر كلهم إخوتي، وعليّ واجب ينبغي أن أنشغل به، ورسالة يجب أن تصل إلى الناس، وما أنا إلا ناقلة أو وسيطة لجهات أخرى تريد أن تسمعكم صوتها محبة بكم أيها البشر قبل أن يفوت الأوان!

ذات ليلة يا أصدقائي، وبينما كنت نائمة في الصالة من شدة التعب، صحوت بعد منتصف الليل بساعة كما أذكر وأنا أشعر بالعطش، وما إن شربت حتى لفت انتباهي ضوء من داخل غرفة المكتب، فولجت إليها، ووجدت جهاز الكمبيوتر متروكاً دون إغلاق، فعجبت من ذلك، وظننتني نسيته في غمرة التعب، وما إن اقتربت منه حتى شدّ انتباهي ما كتب على الشاشة بخطّ واضح:

- نريد أن نملي عليك رسالتنا فاجلسي واكتبي.

وأحسست حينها بثقل في رأسي، وكأنّي على وشك النوم ثانية، جلست شبه واعية، فيما كانت أصابعي تكتب بشكل أوتوماتيكي صفحات كثيرة على الشاشة، وكانت الأفكار تنثال من أعماقي مباشرة وتتدفق بقوة، وما على أصابعي إلا ترجمة

ذلك بشكل عفوي وسريع، ولم أُصدق نفسي بعد ما انتهت تلك النوبة مما جرى معي وما فعلت، وتلك العشرات من الصفحات التي كتبت!

قد يبدو لكم الأمر مشهداً من فيلم - ميتركس - للأخوين وتشاوسكي، لكنّ هذا ما جرى. لقد أقحمت في هذا العالم إقحاماً، وعرفت أنّه تم اختياري أن أكون - وسيطة - لهذا التواصل مع تلك الجهة الغامضة التي عرفت عنها الكثير فيما بعد، مما أخبرتني به، فقد بدأ الأمر أولاً عبر الكتابة الأوتوماتكية التي أملت علي كتابي - عودة أطلانطس - وكتبي الأخرى لاحقاً، غير أنهم وجدوا طريقة أخرى للتواصل معي والكشف عن ذواتهم، والآن لا بدّ أنّ الفضول سيأكلكم لتتعرفوا عليهم، ذلك ما ستقرؤونه في كتبي إن أحببتم، غير أني سأبوح لكم بشيء يسير عن هؤلاء، فليس كلّ ما يعرف يقال، ولن يسمحوا لي في كلّ الأحوال بأن أتجاوز حدود الأسرار» .

قالت لنا - باتي - بعد ذلك كلاماً كثيرا فهمت منه أنها استطاعت التواصل مع أرواح سامية لأجدادنا البشر الذين كانوا هنا قبل عشرات الآلاف من السنين، وكانوا يملكون حضارة متطورة جداً على الأرض، وهم الآن يعيشون في -

البعد السادس - ولم نكن جميعاً على معرفة بفكرة الأبعاد، والأكوان المتوازية التي شرحتها لنا بإسهاب:

نحن نعيش فيما يطلق عليه - البعد الثالث -، فالزمان محكوم بالمكان، ويرتبط معه بشكل وثيق وهو ما يسمى - الزمكان - وكلّ ما نراه الآن له ترددات معينة أو اهتزازات، فكل ما في الكون يتذبذب، ولديه سرعة وطول موجة، والإنسان يستطيع أن يدرك هذه الذبذبات ضمن نطاق معين، فإن زادت سرعتها عن النطاق الذي يدركه، لم يعد يرها، وهذا لا يعني أنها لم تعد غير موجودة، لكنها أصبحت تنتمي إلى بعد آخر، وهناك - البعد الرابع - غير المحكوم بالزمان، وهناك الخامس الأكثر تطوراً منه، ولا يستطيع البشر تخيل شكل الحياة فيه لأنهم لم يجربوها، ولا يتمكن الدماغ من تصورها، ولا الخيال القاصر من استيعابها، وهناك السادس، والسابع ويقال إن الأبعاد تصل إلى العشرة وهي المنتهى، ولا شيء بعدها حيث تغرق الأرواح بالنور الكلي أو -المصدر الأساسي- لها الذي جاءت منه!

وحين يتخلص الإنسان من جسده المادي بالموت، فإنّ الجسد الأثيري يبقى فاعلاً وواعياً إذ يكون قد انتقل الى بعد آخر، وهكذا يا أصدقائي فإن الموت وهم، وما هو إلا انتقال

لمرحلة أخرى، ولا فناء أبداً..!

أترون كلّ هذه الجغرافيا التي على الأرض أو في الكواكب والنجوم والمجرات فإنها تقع في - البعد الثالث - فقط، وهناك عوالم موازية أو نظيرة لها في البعد الرابع وأيضاً في الخامس وهكذا..!

هذا الأمر يشبه الإنسان تماماً فله جسد مادي يتناغم مع البعد الثالث، وآخر أثيري يشبك طاقته مع البعد الرابع، وآخر أكثر منه شفافية واهتزازاً يتلاءم مع البعد الخامس، وهكذا، وعليكم أن تتخيلوا أنّ كل واحد منكم يلبس مجموعة من القمصان الرقيقة فوق بعضها بعضاً، وأنّ لكلّ قميص عالمه الخاص وألوانه وجمالياته، هكذا تبدو الأبعاد الأخرى يا أصدقائي!

ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في أنّ هذه الأجساد الخاصة بالإنسان لا تعمل جميعاً معاً، أي لا يحدث لها تواؤم مع بعضها بعضاً أو ما يسمى - مزامنة -، فهي منفصلة عند البشر الحاليين، فلو التحمت معاً وأصبح إدراكها موحداً لأصبحنا أرباباً على الأرض، أو لأقل - كائنات خارقة - لا شبيه لها في الكون، فهي الوحيدة التي لديها قدرة على الوصول إلى البعد العاشر من دون كلّ المخلوقات التي يصل

أفضلها إلى البعد الثامن ولا شيء بعده!

بدا لي الأمرُ مشوّشاً وغير قابل للتصديق، أبعاد وأجساد أثيرية، وعوالم علوية وأرواح سامية ومجموعة قمصان، وتذكرت حينها فيلم - سوبرمان - وكيف تتبدل قوته ويصبح خارقاً حينما يلتحم بقميصه الأزرق، ويتخلى عن لباسه الأرضي، فكما لو أنّ هؤلاء الذين جاؤوا بحكايته أرادوا أن يقربوا لنا فكرة الأبعاد، فهو يمتلك القوى الهائلة فقط في حالات معينة، أي حينما يدخل إلى بعد جديد ثم يعود إلى وضعه العادي مجدداً!

وكما لو أنّ - باتي - أدركت أنّها قد ساهمت في تشويشنا بكل هذا الكم المكثف من المعلومات التي تصيب المرء بالدوار فوق ما هو عليه، فقد قررت أن تعود إلى أصل الدورة التي جمعتنا من أجلها، ولا سيما أن بيننا من كان طبيباً أو مهندساً ولديه ميول علمية يؤمن بالمحسوس والملموس على هذه الأرض، وينتظر أن يفهم سرّ إيقاظ الحامض الأميني لكي يغدو البشر كائنات أكثر رقياً وتطوراً .

وكما لو أنني سحبت من عالمي اليقظ ورحت فيما يشبه الغفوة فيما صوت - باتي - يغيب عنّي شيئاً فشيئاً حتى غرقت في نوم عميق!

عين ثالثة

رسالة الكترونية أخرى وصلتني يقول فيها صديقي الغامض:

سأحدثك اليوم عن طبيب العيون الروسي الذي سأطلق عليه اسم - فيدروف - والذي التقيته في واحدة من سياحاتي إلى الهند بداية الألفية الجديدة.

كان الرجل قد وقع أسير تلك الأشكال والمنحوتات الخاصّة بالعين، والتي كان يجدها مرسومة على جدران المعابد البوذية والهندوسية وحتى في الآثار الفرعونية، وقرر أن يبحث عن سرّ تلك العيون التي تتشابه في نظرتها، و تكاد تكون تابعة لشخص واحد، يريد البشر تخليده، واكتشف الرجل من بحوثه المتواصلة، وتأملاته العميقة أن للعين هندسة خاصة، ومقاييس تتعلق بموقعها من الوجه، وكلّ حالة تدل على صفات الشخص

التي تكون له، إضافة إلى وجود بصمة لكلّ إنسان لا تتكرر عند الآخر في قزحية العين، فثمة عيون تدل على أنّ الرجل حنون، أو قاس، أو لديه ميول إجرامية، أو أنه كريم، أو نذل، وهكذا، لكنّ هذه المسائل التي وضعها في كتاب، وجعل لها نظرية خاصة به اكتشفها بنفسه، وأطلق عليها - هندسة العين - ونسبها إليه، لم تكن هي جلّ ما أدهشه، إذ كان في رحلة إلى جبال الهمالايا التي من الجهة الهندية، وكان يسأل السكان المحليين عن سرّ تلك الرسومات الخاصة بالعين، وسرعان ما باح له بعضهم بأنها تعود للأجداد النائمين في الكهوف، وتعجب من وجود مثل هؤلاء، فقد ظنّ الأمر من خيال الأهالي الذين أضناهم الفقر في تلك الديار وعصفت بهم الخرافات، فمن هؤلاء الذين ينامون في الكهوف، وكم لبثوا في رقادهم هذا، ومن رآهم أو قابلهم في الحقيقة، وليس اعتماداً على حكايات الأهالي التي يتناقلونها كسرّ خفي وحصين لا ينبغي للأغراب أمثاله أن يطلعوا عليه أبداً!

قال لي - فيدروف - إنّه عرف أن ثمة أجناساً من البشر من أجدادنا العظام السابقين لنا وبأعمار تقدر بآلاف السنين، في حالة تسمى - سوماتي - أي النوم الطويل، وهو غير الموت، ويتعلق الأمر بحفظ أجسادهم في درجة حرارة معينة، مع بقاء

اتصال خفيف بين أرواحهم وأجسادهم، وقال بأنّ بعضهم أكثر ضخامة من البشر الحاليين وأكثر طولاً، ولديهم العين الثالثة ما تزال عاملة، وقال إن هذا الوصف أخذه من بعض الكهنة هناك الذين أخبروه ببعض الأسرار نظراً إلى طيبة قلبه، وأنّه لا يضمر الشرّ لأحد، بل يرغب بالمعرفة، وأنّه عرف القليل فقط، فثمة كهوف مخفية في جبال الهمالايا تقود إلى أقبية وممرات عميقة، وفي داخلها تكون الحرارة ثابتة بحدود ٢٢ درجة مئوية، ومداخل هذه الكهوف مموهة من الخارج حيث لا يستطيع أن يكتشفها أحد غير طبقة عليا من الكهنة أو الخدم الذين يمكن لهم الدخول إلى أعماقها ورؤية هؤلاء الأجداد النيام، والتواصل معهم بالتخاطر!

قلت لفيدروف: حسنا صديقي، وما العين الثالثة التي تؤمن بها وأنت طبيب متخصص في العيون، وكيف هي موجودة في البشر؟ لقد كنت أحسبها من نسج الخيال!

قال لي موضحاً بدون أن تبدو عليه الدهشة: يصف بعض الروحانيين اليوم العين الثالثة على أنها موجودة في منطقة الجبهة من الوجه أو ما يسمى - الناصية -، وأنّهم يسعون لتنشيطها، والحقيقة أنها غدّة صنوبرية في حجم حبّة الذرة، كانت موجودة عند أجدادنا السابقين كعين ثالثة في الرأس من

الخلف، وهي مسؤولة عن الحدس أو الحاسّة السادسة كما يطلقون عليها، وجانبها المهم المساعدة على الرؤية في الأبعاد الأخرى التي هي فوق - البعد الثالث - الذي نراه بأعيننا اليوم، أيّ قادرة على التقاط العوالم التي تكون أعلى تردداً واهتزازاً لموجاتها الأثيرية، ثم ضمرت هذه العين وتراجعت مع الانحطاط الذي طرأ على البشر، وأصبحت غدّة صغيرة في الداخل، يشير تركيبها إلى أنّها تشبه إلى حدّ بعيد العين الحقيقية، إذ تحتوي على عدسة وشبكية، وعليها منطقة شفافة لا تحجب الضوء أو أيّة إشعاعات أخرى، ولكنّها بالطبع لا تؤدي عمل العين العادية، ويرى بعض المعلمين أو - الغورو - كما يطلق عليهم في الهند بأنّ هذه الغدة مسؤولة أيضاً عن ربط الأجساد الأثيرية للإنسان بالجسد المادي حيث يحصل هناك نوع من المزامنة معاً بين كلّ هذه الأجساد لا الانفصال مثلما هو عند البشر حالياً، ويمكن عبر تنشيطها زيادة القدرة على التخاطر، وبالتالي إمكانية توقع الأحداث، ورؤيتها في أماكنها القريبة أو البعيدة، ورؤية هالات البشر!

وبما أنك سألتني عن الأمر سأكشف لك سرّاً، فقد عرف الأجداد أهمية هذه العين الثالثة، واشتغلوا على تقويتها، فمثلا يضع الهنود على جباههم مادة حمراء تساعد في تنشيطها، أو

يدهنها بعضهم بزيت الزيتون والمواد العطرية، وكان المسلمون الأوائل يحرصون على السجود حيث تلتصق جباههم مباشرة بالأرض دون حائل، لاحظ أنّ بعض الحضارات عرفت سرّها، وكان الملوك ينشطونها أيضاً بلبس التيجان الذهبية المرصّعة بالحجارة الكريمة، وبعض النساء أيضاً يحرصن على أن يكون الحجر الكريم أو المعدن النفيس فوق الجبهة تماماً!

تعودت أن لا أنكر شيئاً، فالإنكار يجعل المرء يقف عند حدّ معين من المعرفة، وهو حجاب مانع، وإنما أفتح نفسي للتفكير والتأمل فكلّ شيء قد يبدو صحيحاً، وقد يكون غير ذلك، أما مسألة إغلاق النقاش والسخرية، والقول بأنّ هذا الكلام خرافات فإنّه سيضع أمامي عوائق لأعرف أكثر، ولهذا تركت - فيدروف - يتحدث عن خفايا رحلته، وفي النهاية فإنّ مسألة قبولها أو تصديقها نسبية، وتعود إليّ، فلا ضرر من السماع واكتساب الخبرات، وبعدها ستتم الغربلة في رحلة الحياة هذه، تماماً كما حدث لك، فلكلّ مجتهد نصيب!

سألت فيدروف أخيراً: حسناً ماذا يصنع هؤلاء الأجداد العظام النائمون هناك، ولماذا لا يستيقظون ويعيشون بيننا، وأي دور لهم أصلاً، ولماذا لا يوجد بين بني آدم اليوم من له عين ثالثة حقيقية غير ضامرة؟

قال لي بعد تنهيدة طويلة: عليك أن تقرأ كتابي في هذا الموضوع أولاً، ففيه إجابات شافية، ومع ذلك سأخبرك ما توصلت إليه، وهو يتضمن رأيي ،لك حرية أن تأخذ به أو تتركه..!

ثم صمت لبرهة وسألني بشكل مفاجئ: هل سمعت بشامبالا؟

بحر ميت

لا أدري كيف حصل - أبوصالح - على رقمي الهاتفي، وورّطني في مغامرة لم أتوقع حدوثها يوماً. قال لي إنّه سمع عنّي من أحد الأصدقاء الذي نصحه بالتواصل معي، لعلني أفيده في أمره، وأنه تصفح روايتي - أبناء السماء -.

قلت له: إن كان الأمر يتعلق بنقاش أدبي حول روايتي، فسيكون ذلك في محاضرة سيتم ترتيبها بأحد المنتديات الثقافية بعمّان وسأخبره بموعدها قريباً!

ضحك الرجل طويلاً بما يشبه القهقهة التي بدت لي خارجة من أعماقه كما لم يضحك من قبل، وقال جملة بدت مفعمة بالسخرية:

- رواية شو يا زلمة.. أكيد انت بتمزح.....!!

وطلب أن نلتقي لشرب فنجان قهوة، وبعدها

سيخبرني عن الأمر الذي يريدني من أجله، وبالفعل التقيته في موعد اختار مكانه بنفسه في - مقهى فيرنيانو - بمكة مول.

كان رجلاً طويلاً، ذا ملامح متجهمة، يميل لون بشرته إلى السمرة الداكنة، مع شاربين كثّين، غير أنّه بدا لي أنيقاً، ورائحة عطره مميّزة، ورغم ذلك يخرج المرء بانطباع قابض للنفس من أول وهلة للقائه.

قال لي إنّه يحبّ هذا المقهى، لأنّه يتمكن فيه من التدخين، وقبّته السماوية في الليل يتم فتحها فتدخل نسمات الهواء، ويخيل إليه أنّه يجلس في الصحراء تحت نجوم السماء، وفهمت منه بعد حوار قصير إنه مهتم بالدفائن، ويعرف الكثير من أسرارها، غير أنّه صدمني بقوله إنّه كان على صلة بجماعة عجلون الباحثين عن الكنوز، وأنّ ضابط الأمن المتقاعد فواز بك -الذي ذكرته في كتابي- صديقه، وسبق أن شاركه مغامراته في البحث عن الذهب، ولما كنت أودّ أن أشرح له أن الأمر كلّه محض خيال كاتب، وعمل روائي، لم يتركني أتابع، بل قال لي بشكل حازم:

- يا رجل لا تتردد ستكون لك حصة كبيرة، فقط أريد أن أطلعك على شيء خاص، وأن تساعدني في حلّ الورطة التي

وقعنا بها، واضح أنّك خبير في هذه الأمور، أعرف أنك تحاول أن تخفي الأمر خوفاً من متابعة الأمن لنا، فلا تقلق، فأنا نفسي ضابط أمن، والأمور تحت السيطرة، والكل في هذه البلاد يبحث عن نصيبه!

ولا أدري كيف سحبني الرجل بحيله الكلامية، ووعوده الشائقة إلى سيارته الفارهة، بل أيضاً بتهديداته المبطنة، فوجدتني أجلس إلى جانبه في سيارته السوداء الضخمة ذات الدفع الرباعي، والتي تشبه سيارات المواكب الرسمية، التي تمرّ مسرعةً وغامضة تخفي من في داخلها من الشخصيات الكبرى، وقال لي:

هو مشوار قصير لن يتجاوز الساعة إلى الأغوار عند بعض الأصدقاء، وهناك سترى بنفسك ما وصفته لك، وبعدها أترك الأمر لتقديرك!

وشعرت كما لو أنّ حمّى الكنوز الدفينة قد أصابت هذا الرجل بلعنتها، وأنّها طالتني أيضاً، فقد عجبت كيف أنّ شخصيات روايتي قد تحولت إلى لحم ودم، وأصبحت تطاردني من مكان إلى آخر، والأعجب من هذا أنّ الكلّ يدّعي وصلاً بها، وأنا آخر من يعلم!

كان الرجل يدخن بشراهة، وهو يسوق سيارته هابطاً إلى

الأخدود الغوري الهائل والذي يفصل ضفتي نهر الأردن، ويشكل جزءاً من - حفرة الانهدام - الهائلة التي تكونت في عصور جيولوجية سحيقة، وتمتد كصدع طويل يصل إلى ستة آلاف كلم، وقد بدأ رفيقي بالانحدار من طريق المطار غرباً عبر - مرج الحمام - ونزولاً باتجاه طريق - ناعور - المتعرج.

وبقي يتحدث بلا توقف، وحين كان يفتح صندوق تابلو السيارة الداخلي بين الحين والآخر لتناول علبة سجائره كنت ألمح مسدساً أسود بفوّهة فاغرة شعرت بها تكاد تلتهمني، وكانت تلك إشارة كافية لي للمضي مع الرجل في مشواره دون أدنى تردد!

كان الوقت يقترب من العصر حين وصلنا إلى أخفض نقطة تحت مستوى سطح البحر يمكن أن يصل إليها إنسان على وجه الأرض، وكانت اللافتة المثبة على جانب الطريق تشير إلى الرقم ٤٢١ متراً من الانخفاض، هناك حيث يتمدد البحر الميت على بعد كيلومترات قليلة ويفيض بملوحته اللزجة، فيما الضغط على الأذنين يصل إلى ذورته، ثم انعطف بنا الرجل يميناً في طرق فرعية داخل مزارع الموز والحمضيات المتشابكة، وبدا لي أنه يحفظ مساره عن ظهر قلب، وعرفت أنه من مواليد هذه البلدة الريفية الصغيرة، غير أنه تركها وذهب للعيش في

فيلا بأحد أحياء عمان الراقية بعد أن تغيرت أحواله في الوظيفة، وباع معظم الأراضي التي ورثها عن والده لتجار عمّان الذين أصبحوا يمتلكون جلّ المنطقة!

ولما ولجنا في أعماق المزارع، وابتعدنا عن العمران، وضاق بنا الطريق، وأصبح ترابياً ظهر لنا فجأة من بين الشجر رجل بشماغ أحمر فأشار للسيارة بالوقوف، وبدا لنا ما يشبه الحاجز أو البوابة للدخول، وكأنّها منطقة ممنوعة، أو معسكر جيش لا ينبغي للأغراب أن يتجاوزوا حدوده بأيّ حال، فمد - أبوصالح - للرجل يده من النافذة مسلماً، فعرفه ورحّب به بشدّة، وفتح لنا الحاجز مشيراً بالدخول، ولم نمض في سيرنا كثيراً حتى لمحت بيتاً ريفياً بدا لي شبه مهجور في منتصف هذه الغابة من الأشجار الكثيفة المتشابكة التي تجعل العثور على المرء فيها، كمن يبحث عن إبرة في كومة قش!

ظهر لنا مجموعة رجال يبدو أنهم ينتمون إلى قبيلة رفيقي الذي شعرت بأنّي معتقل لديه حتى حين، والله وحده يعلم ما الذي ينتظرني في هذا المكان الذي يشبه الدغل. كانوا يسلمون عليه بحفاوة وينادونه -أبو صالح بك- وكان بعضهم يدلّي مسدسه بشكل واضح على حزامه دون أن يأبه لأحد، وتلك ظاهرة لا يمكن أن تكون عادية في أيّ مكان بالأردن، وفكرت

لوهلة أنّي في كابوس حقيقي، وما أزال نائماً في فراشي بعمّان، ولمحت في غمرة الاستقبال بالرجل، قططاً سائبة ودجاجاً وبضعة خراف، وكلباً، وسيارة - بكب - قد أكلها الصدأ، وكما لو أنّ أهل المكان يعيشون عزلتهم باكتفاء ذاتي ولا حاجة لهم بشيء من غيرهم، وشعرت لوهلة بنسمة هواء باردة مرّت على قطرات العرق التي انسابت على وجهي من قيظ الغور الملتهب وسخونة الموقف الذي وضعت فيه، ولما رأيت التساؤل على وجوه القوم عن الضيف الغريب الذي اقتحم وكرهم، أخبرهم أبو صالح بأنّ - الأستاذ - وهذا اللقب هو الذي كان بين الحين والآخر يخاطبني به منذ عرفته - لديه خبرات بالموضوع وسيساعدنا، وأنه من عيلة طيبة ونشمي - وهمس لهم بكلمات أخرى لم أفهم منها شيئاً، غير أن توجسهم قد زال قليلاً، وخفت عندهم مستوى التوتر الأمني، ورغم ذلك فقد كنت في حالة يرثى لها، ألوم نفسي على تلك اللحظة التي رددت فيها على مكالمته، ولم أعرف ما يتربص بي من مفاجآت في بيت شبه مهجور بمزرعة على بعد أقل من كيلومتر من نهر الأردن، حيث رشاشات الجنود الإسرائيليين في الضفة الأخرى من النهر متأهبة وتنتظر أن تحصد أيّ هارب باتجاهها، أما من الجهة الشرقية التي نحن فيها فقد تكون هناك كمائن لشرطة

مكافحة المخدرات تتربص بالخارجين من هذا المكان الموحش الذي كانت الإشاعات تشير إلى أنه ربما يكون مرتعاً لمزارع سرية للماريغوانا وأنواع الحشيش، وإذا كان المرء محظوظاً فقد يواجه أحراشاً مظلمة تحيط به من كلّ جانب وتسوح فيها الجهات، ولا يعرف فيها شماله من يمينه، بينما تجوح الكلاب الضّالة، وتسرح قطعان الخنازير البرية المتوحشة التي يرسلها الإسرائيليون لتدمير المزارع الأردنية ونقل الأمراض، وأنا في ذلك الموقف العصيب بين نحو سبعة رجال مدججين بالأسلحة ينتظرون منّي أن أحسم لهم أمراً غامضاً، لم أعرف تفاصيله بعد!

مذكّرات ممنوعة

تلقيت اليوم رسالة جديدة عبر -إيميلي- يخبرني فيها صديقي الذي يدّعي بأنّه الحسيني عن اكتشافات -فيدروف- في جبال الهمالايا:

أخبرتك أنّ- فيدروف- جمع معارفه في كتب قيّمة، وحاول فيها أن يفكّ أسرار تلك العيون التي في المعابد، والتي قادته إلى الأجداد النائمين في كهوف الجبال الشاهقة!

لقد قرأت كتبه حرفاً حرفاً في محاولة لأفهم ما توصل إليه، ورغم أنه لم يكن كريماً جداً في كشف الحقائق، وبارعاً بالتمويه، فإنّني حاولت أن أربط ما كتبه وما كان يخبرني عنه مباشرة، وفي النهاية فإنّ طبيب العيون الماركسي العتيد الذي كان لا يؤمن بما وراء العلم التشريحي، والنظريات التي درسها

في الجامعة، أو تربى على أفكارها المادية في مجتمعه، قد ظهر منفتحاً على آفاق ماورائية لتفسير ما حوله، وما سمعه أو رآه بنفسه!

اكتشف الرجل أنّ كهوف الهمالايا هي أعمق مما يظهر للأهالي هناك وأنها تغوص بعيداً في الجبال لكيلومترات عديدة لا أحد يعرف بالضبط مداها، وأنها عبارة عن ممرات تفضي إلى باطن الأرض، وتقود في النهاية بعد رحلة طويلة ربما إلى مدينة سرية ذات حضارة متقدمة تدعى - شامبالا - وتعني باللغة السنسكريتية - مدينة السلام والسكينة- ولدى أهل البلاد اعتقاد راسخ بأنّ سكانها يتصفون بالحكمة العظيمة والعلوم المتطورة ورفيع الأخلاق، غير أن الجميع يخفي الحديث عنها مثل سرَ عميق، وعهد وثيق لا ينبغي لأحد من العوام معرفته، وخصوصاً من البشر الذين يسعون في إفساد الأرض بالحروب والتلوث والكوارث، وبالتالي ستبقى تلك المدينة القابعة في الأعماق محفوظة وحيّة لا يدخلها إلا المطهرون!

وقال لي فيدروف بأنّ - بني آدم - الذين على سطح الأرض وننتمي إليهم هم آخر - نسخة - من الإنسان الذي وجد كاملاً ثم تراجع وانحطت قدراته، ووصل إلى الهوان الذي

هو فيه الآن، وأنهم كانوا أول الأمر في - شامبالا - ثم تم إخراجهم منها ؛ لأنهم لم يعودوا يصلحون للعيش فيها بعد فساد عناصرهم، وتبدلاتهم، وضعف طاقتهم الروحية، وانهيار منظومتهم الأخلاقية..!

برأيي أن البشر الحاليين، أو بني آدم هم أحد أصناف «الإنسان» وليس الصنف الوحيد فقط، فثمة نسخ أخرى عاشت ووصلت القمة ثم اندثرت، وبعض نسخها ما يزال يعيش إلى اليوم، ولكن في تلك المدن الخفية، وطبقات الأرض السرّية، وهناك من يحفظ - شامبالا - والممرات إليها من الغزاة عبر قدرات روحية عالية، ويمكنك أن تعتبر هؤلاء الأجداد العظام - الاحتياط الجيني للبشرية - الذي سينهض من نومه الطويل ذات يوم قريب حتى النسخ الأخيرة من البشر، أقصد أنا وأنت وكلّ البشر الذين على وجه الأرض لديهم قدرات كامنة، قد يتم إيقاظها ذات يوم قريب بعد حصول كوارث هائلة يرحل فيها الكثير من الناس، ويبقى قلة قد يشهدون ظهور العصر الذهبي الذي طال انتظاره!

على كلّ حال لن أطيل عليك اليوم لكنّي أود أن تقرأ مذكرات - الأدميرال ريتشارد بيرد - التي سأرسل إليك رابطها عبر الانترنت، وما اكتشفه في رحلته إلى تلك الأرض

الأخرى، لقد كانت هذه المذكرات سرّية وممنوعة حتى بعد رحيله، وتم نشرها مؤخراً بعد أن تسربت، وظهرت على مواقع الكترونية، وأصبحت متاحة للجميع، وستعرف أشياء أكثر عن تلك المدن الهائلة في باطن الأرض، وشامبالا العظيمة التي نحنّ إلى الرجوع إليها ولو بعد حين!

- لا تصب بالدهشة، نعم لقد كنّا هناك جميعاً ذات يوم عبر أجدادنا، وتم طردنا منها، ومن يصلح ويرتقي بنفسه قد تكون له فرصة العودة إليها مرة أخرى...!

إكسير نائم

كان هواء - جلعاد - عليلاً، فيما أشجارها الباسقة الخضراء تجلي العيون، وينفتح المدى الشاسع من جهة الغرب على - الأرض المقدسة - التي وقف العرب أمام بواباتها من جديد دون أن يجرؤوا على الدخول، كما فعل أبناء عمومتهم قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة فتاهوا في الأرض، وبدأت أسمع في غمرة الأفكار المتلاطمة بين التاريخ والجغرافيا صوت - باتي - وهي تعيدنا إلى اكتشافاتها المحيرة:

قالت لنا إنّ علماء البيولوجيا والأطباء يعرفون أنّ الحامض الأميني في جسم الإنسان يحتوي على أسرار كثيرة لم تكتشف بعد، وأنّ القدرات الكامنة فيه لا تصدق، وهي نائمة حتى حين، ولكنّ بعض هؤلاء المتخصصين يعتقدون بأنها فائضة ولا ضرورة لها، وبالطبع فإنّ الصانع الأكبر لا يضع في

أجسامنا ما هو عبثي ولا حاجة إليه، والحقيقة التي كشف لي عنها أصدقائي الذين أتواصل معهم أنّ هناك اثنا عشر خيطاً أو جديلة ما بين مادية وأثيرية، منها عشرة في حالة خمود واثنان فقط يعملان، تصوروا شاحنة ذات اثني عشر محركاً، ومضطرة إلى العمل على محركين فقط، فكيف سيكون حالها لو استطاعت تشغيل كلّ هذه المحركات معاً، وإلى أيّ مدى ستصل طاقتها!

إذا كان علماء البيولوجيا المقلدين بعضهم بعضاً وأسرى المناهج الدراسية الرتيبة يعتقدون بأن الكثير مما يحتويه الحامض الأميني لا دور له، فإنّ أجدادنا العظام ممن وصلوا مرتبة عالية من العلم في العصور السحيقة حينما كانوا على الأرض من الذين أتواصل معهم قد أخبروني حقيقتها، فليس ما لا يعرف وظيفته هؤلاء يعد شيئاً عبثياً لا فائدة له!

هل تريدون أن تسمعوا أكبر مفاجأة في حياتكم؟

كان أسلوب باتي مشوقاً، وفجأة تخيلت نفسي طفلاً صغيراً وجاهلاً في روضة أطفال يحتفل لأول مرة بنطق الحروف، واكتشاف حاصل جمع ١ + ١، وبدأت أستوعب شيئاً فشيئاً خطورة ما تقوله لنا بكلّ الدهشة، فكأنّ إكسير الحياة

موجود في أعماقنا ونحن عنه غافلون:

- حينما خلق الصانع الأعظم الإنسان، أبدع في خلقه، وجعل فيه أعظم الأسرار، وسخّر له الكون كله بما فيه من الشجر والحجر والحيوانات وحتى الكائنات الأخرى التي لا ترى، إذ جعل فيه طاقة نورانية منه، ووضع في أعماقه المعارف كلّها. إنّه الكون كلّه مصغراً أو كأنّه مرآة له!

واحدة من هذه الخيوط الخامدة أو الطاقات الكامنة في الحمض الأميني، والتي يظنها علماء جامعاتنا الكسالى، بلا فائدة مسؤولة في الحقيقة عن تجديد خلايا الجسم، وإبقائها في حالة شابة، وبالتالي حين يتم تنشيطها يبقى الإنسان شاباً طيلة حياته، أنا لا أَتحدّثُ هنا عن الخلود، فثمّة موت في النهاية، ولكن أتحدث عن بقاء الإنسان في حالة شباب ويفاعة، وإطالة العمر ليتجاوز ألف سنة بدون أعراض الهرم والمرض وموت الخلايا!

إن إيقاظ هذه القدرات النائمة ثورة بشرية هائلة، فقد عثروا أخيراً على - إكسير - الشباب وإطالة العمر، وهو في أعماقهم، ليس بعيداً عنهم.

كان كلام - باتي - وكشفها لهذا السرّ قد جعل معظم الحاضرين فاغري الأفواه، ينتظرون أن تضغط لهم على زرّ

سحري في أجسادهم كي يعودوا شباباً!

ولكنّ المرأة التي لاحظت غبطتنا الحالة مما نسمع، راحت تسقينا الكثير من الخمر المدوّخ للأحلام المقطرة في كلمات، ونحن نزداد سكراً ونشوة!

قالت لنا:

الإنسان هو الكائن العاقل الذي أبدعه خالقه، ووضع فيه كل القدرات والأسرار، فأيّ إمكانيات خاصة موجودة في الحيوانات مثلاً، فالأولى أن تكون في الإنسان، ثمّة من الحيوانات من يرى أبعد، أو خارج نطاق البعد الثالث، وبعضها لديه حاسة الشم عظيمة، أو يسمع أكثر ولمسافات بعيدة، وهذه إمكانيات موجودة في الإنسان لكنها معطلة، ألا تعرفون أنّ خلايا الدماغ المستخدمة لا تزيد عن أربعة بالمائة عند أفضل العباقرة، وأنّ الباقي غير مفعّلة، وأنّ الإنسان لا يستخدم أكثر من سبعة بالمائة من قدراته البصرية، ونسبة ضئيلة من حاسّة الشم وغيرها!

هناك خيوط حامض أميني أخرى مسؤولة عن إعادة بناء أعضاء الإنسان في حالة تعرضها للبتر، تصور أنّ البرنامج الخاص بكفّ يدك وأصابعك موجود أساساً في الدماغ الذي يقوم بإعطاء أوامر لإعادة بناء هذه اليد، وتلك خاصية موجودة

عند بعض السحالي التي تبدو لنا تافهة لكنها سرعان ما تقوم بإعادة بناء ذيلها المقطوع!

خلاصة الأمر نحن كائنات خربة منذ عصور طويلة، فقط كنا في ما يشبه - الفردوس - بقدرات عليا، نعيش طويلاً، لا نمرض. نرى بوضوح حتى مسافات بعيدة. نسمع أكثر، ونستشرف ما يجري في المستقبل عبر الحاسة السادسة المعطّلة حالياً، ونتواصل مع العوالم الأخرى التي تقع ترددتها فوق الأشعة البنفسجية، أو تحت الحمراء بسهولة!

الآن نحن كائنات مريضة في أرذل حالاتها!

وحين سألنا - باتي - السؤال الذي أحسست بأنّه قد خطر في رؤوسنا دفعة واحدة :

من الذي عطل قدراتنا؟

وكيف سنوقظها؟

صمتت طويلاً، وقالت: تلك حكاية طويلة قد يعرفها بعضكم ذات يوم، وليس هذا أوان الحديث عنها فلا اتفاق على ما جرى للبشر، كلّ أصحاب دين لديهم حكاية مختلفة، ولكلّ روحاني مشربه أيضاً، وحكايته الخاصة، وتأويله لما جرى.

في النهاية وظيفتي ليس إعطاء إجابات قطعية في أمور إشكالية حدثت منذ زمن سحيق، بل المساعدة على فهم ما في

أعماقنا من قدرات هائلة، فالمعرفة بداية الطريق للحل، والتأمل العميق سيقود الى اكتشاف الذات وأعماقها وما فيها من الكنوز، وبالتالي تنشيطها، لكنّي أقول لكم إنّ المعلمين الذين أتواصل معهم يقولون إن عهداً جديداً سيأتي على البشر، وسيتم فيه تنشيط هذه القدرات من جديد، وعسى أن نكون له جميعاً من الحاضرين!!

وسمعت الدكتور جمال يقول لي: كلامها صحيح يا رجل.. ألَمْ نقرأ أنّ أهل الجنة شباب لا يمرضون ولا يهرمون، وأنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم ردّه إلى مرحلة - أسفل سافلين- !

وكمن اكتشف كنزاً فجأة أو فكرة عظيمة راح يصيح ونحن في طريق العودة إلى عمان وهو يقودنا بسيارته المتهالكة التي تئن بين الحين والآخر:

نعم، نحن في أسفل سافلين، ألَمْ أقل لك..؟

الآن عرفت كل شيء نحن فعلا ما نزال في هذه المرحلة التي يبدو أننا سقطنا فيها منذ أجدادنا الأولين..!

ثم أوقف السيارة في مدينة - صويلح - الواقعة على أطراف العاصمة، حينما لمح محلاً لبيع المشروبات الكحولية وقال: اسمح لي فأنا أريد أن أحتفي بهذا الاكتشاف العظيم

اليوم، وحتى مطلع الفجر، وبالطبع مع واحدة من الجميلات..!!

وعجبت من تصرفات صديقي - المؤمن - المفاجئة، وقراراته اللحظية، ومزاجه المتقلب، وخشيت أن تنتابه نوبة الغضب مجدداً ويعاود البصاق، غير أنّه رجع إلى السيارة مبتهجاً، ومدجّجاً بكيس ضخم مليء بالقوارير الخضراء، وراح يسوق في حالة بدا لي فيها ثملاً حتى قبل أن يتناول أي قطرة، فيما أخذ بالصفير أولاً ثم الغناء بصوت مزعج:

«على دلعونا.. وعلى دلعونا.. راحوا الحبايب.. ما ودعونا...»..!

ذهب عصملي

جلسنا متربعين على الأرض، وكان بجانبي - أبو صالح - الذي أشار لرجل أمامه أن يتكلم بعد أن دار أحد الحضور بالقهوة السادة علينا، وقبل أن يبدأ كلامه قام وأحضر نسخة من القرآن، وضعها أمامي وطلب مني أن أضع يدي اليمنى عليها، وأقسم بالله العظيم على حفظ الأسرار، وأن أعطيهم العهد بأن لا أخونهم أبداً، ولم يكن لي بدّ من فعل ذلك أمام النظرات التي تحاصرني من كلّ جانب، والمسدسات التي تلتمع بين الحين والآخر، وقال - أبو صالح - حينها موجهاً كلامه لي ضمن تهديد مبطّن:

هذا إجراء عادي فلا تقلق، واللي يخون يا ويله، ونعرف كيف نطول حقّنا منه..!

ثم أشار إلى الرجل أن يبدأ حكايته فقال:

في الأربعينيات من القرن الماضي جاء إلى منطقة – عراق الأمير – عجوز تركي، كان من الذين خدموا في الجيش العثماني ضابطاً، وكانت معه خارطة تدلّ على مكان حصين قام فيه بإخفاء كمية من الذهب العصملي قبل هزيمة الجيش ومغادرته الأردن، وذلك حين أحسّوا أنهم قد خسروا الحرب، وقد عاد الرجل إلى الأردن، بعد سنوات طويلة، وقد هدّه الكبر ليستخرج كنزه، واستطاع أن يقابل واحداً من أهالي المنطقة وثق به ليساعده في الحصول على الذهب مع وعده له بمنحه جزء منه، وفعلاً بدأ الاثنان بالبحث معاً وبسرّية تامّة حتى وصلا إلى ما يشبه المغارة، وبداخلها كانت صناديق الذهب كما دفنت لأول مرة، فأخذا منها بعض القطع، واتفقا على إغلاق المكان والعودة من جديد لأخذ الصناديق بعد ترتيب الأمر لاحقاً حيث لا يثير ريبة أحد، ولكنّ المضيف على ما يبدو قد أعماه الطمع، وضعفت نفسه الدنية أمام بريق الذهب، فاستغل فرصة عدم وجود أحد معهما، وانقض على التركي العجوز وقتله لكي يخلو له الكنز وحده، ثم دفنه في الكهف نفسه!

مرت سنوات طويلة، والقاتل يعيش رعب جريمته، فيما بريق الذهب يعلو ويخفت أمام ناظريه لا يستطيع أن يخبر أحداً بالأمر، حتى أضناه حفظ ذلك السرّ فاعترف في يوم من الأيام

لأحد أصدقائه بالقصة حتّى يتخلص من وزرها، وليتقاسما الكنز، ثم أعطاه الدليل على ذلك قطعة من الذهب والخارطة التي تظهر موقع الكنز، وكان الرجل قد كبر كثيراً وأصيب بالعجز عن الحركة.

المهم وبدون - طول سيرة - مات هذا الرجل منذ سنوات، ونحن تعرفنا على صديقه الذي قادنا إلى الكنز، وأنا واحد من الذين شاهدوا هذه الصناديق بعيني، الأمر ليس خيالاً!

إلى هنا بدت لي الحكاية مألوفة سمعت مثلها عشرات المرات في قريتي ومن أصدقاء لي، حيث دائما ما يكون هناك تركي عجوز يأتي إلى الأردن ومعه خارطة لكنز دفين، وأستغرب أحياناً لماذا لم يأخذ الأتراك ذهبهم معهم، ومن أين لهم أصلاً كلّ هذه الكميات الهائلة من الذهب التي تركوها خلفهم على أمل العودة، وأسئلة كثيرة لا تنقضي، ولكن في تلك القصص أيضاً يظهر أشخاص أثروا بسهولة لعثورهم على هذه الكنوز، وفي بلدي فإنّ أي محدث نعمة لا يمكن إحالته إلى اجتهاده في عمله، أو غربته الطويلة في الخليج مثلاً بل بعثوره على دفينة من الذهب أو النقود القديمة أو التماثيل النادرة رغم أن طرقاً كثيرة للإثراء لا أحد يشير إليها، ومنها التهريب من الدول المجاورة، والفساد المالي حيث السرقات

والعمولات من بعض كبار المتنفذين والمسؤولين، ناهيكم عن غسيل الأموال، وتجارة المخدرات، وأحابيل وخدع كثيرة لا يعلمها حتى الشيطان نفسه، ومع ذلك فإن حكاية العثور على كنز يبدو حلاً سهلاً للكثير من التعقيدات، ويغلق أفواه الحاسدين، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال!

المهم أنّ الرجل الذي أطال في سرد الحكاية، وعمل لها تفريعات كثيرة كان يسمع بين الحين والآخر همهمات من الحضور تستحثه على الدخول في الموضوع مباشرة، وكان يقول حينها:

«اصبروا يا جماعة.....ترى جايكم بالسولافة»..!

وفي النهاية لَمْ أفهم بعد لِمَ أنا هنا، ومالي أنا أصلا ولهذه -السولافة-، ولماذا حلفت على -القرآن- وأخذوا عليّ العهود والمواثيق الغليظة، ولكنّ -أبو صالح- شعر بالململة أيضاً، وأنّه يجب أن يتنطع لشرح الأمر والدخول إلى الموضوع مباشرة، لكنّ الرجل الذي كان على ما يبدو يملك سلطة ما على رفيقي أومأ له بالسكوت، وراح يكمل ما بدأه:

اكتشفنا يا جماعة أنّ الذهب - مرصود - وعليه حراسة روحانية، لم نستطع أن نفعل حيالها شيئاً رغم كل محاولاتنا

لفتح المكان والوصول إلى الصناديق، فقد كنا نواجه بعقبات هائلة، وكان علينا أن نجرّب أمراً آخر، وهو البحث عن شيخ متخصص في هذه الأمور، ومتمكن من علمه في هذه المسائل، وقد جاءنا أخيراً من العراق، بعد أن جربنا كثيرين فشلوا في المهمة، ولما حضر إلينا وفحص المكان أكد على مسألة وجود - الرصد - وأنه يستطيع التعامل معه، ولكن بشروط أملاها علينا، ومن بينها شراء أنواع خاصة من البخور لكي ينجز مهمته، ومواد أخرى وجدناها في سوق العطارين بعمان بأثمان باهظة، وقال إنّه وجماعته قد عثروا في أول حفرهم للمكان على عظام وجمجمة، وخمنوا جميعاً أنها للعجوز التركي الذي قتل غيلة، فاقترح عليهم الشيخ أن يجمعوا عظامه وأن يدفنوها معا بعد إتمام الحفر للوصول إلى الصناديق، وهنا تململت مجدداً وقد أصابني ما يشبه الغثيان، وأنا أتصور عظام الرجل التي تئن تحت وطأة فؤوس هؤلاء المغامرين، وكدت أعلق على الأمر، لولا أنّ الرجل قاطعني بشيء من الغضب قائلاً:

«اصبر يا استاد.... ترى جايك بالسولافة».

نهايات مشروخة

منذ بداية العام ٢٠١٢ ظهرت الإشاعات في الصحف والقنوات التلفزية وبشكل كثيف عن نهاية محتملة للكون في ٢١ ديسمبر من العام نفسه، وكانت السيناريوهات المطروحة تشير إلى دمار هائل سيحدث لكوكب الأرض إما بسبب الاحتباس الحراري، أو ما يسمى بالارتصاف النجمي لكواكب المجموعة الشمسية، أو لمرور كوكب ضخم يدعى نوبيرو قريباً من مدار الأرض، مما يتسبب بانزياح في قطبيتها، وتعطل للطاقة الكهربائية، وبالتالي قد يقود هذا إلى طلوع الشمس من مغربها!

كانت حمّى النهايات تجتاح قطاعاً واسعاً من البشر من شتى الأجناس والأديان، فيما كان العرب منشغلين بقتل

بعضهم بعضاً، ولا يأبهون لمثل هذه الحكايات، رغم أن بعضها يبدو لهم مقنعاً ويتماشى مع الإشارات الدينية عن علامات الساعة، غير أن كثيراً من قادتهم كما يبدو قرروا التخلص منهم بنظام الإفناء الذاتي، وتسريع - قيامتهم - الخاصة ليغادروا الجغرافيا إلى الأبد كما غادروا التاريخ البشري من قبل!

كنت في تلك الفترة مشغولاً بحياتي العائلية الخاصة بعد خسارات كبرى، وأحاول ترميم روحي التي أكلها الصدأ، ولأُم جروحي التي تقرحت، حينما تسللت إلى حياتي - أمل - ويا للعجب من حساب عبر - الفيس بوك -، هكذا وبكلّ بساطة جرى هذا الأمر، إذ سرعان ما وجدتها أمامي في الحقيقة بعد أن كانت مجرد شخصية افتراضية، بصورة تعبيرية مضللة، وكتابات مشوشة، وعرفت فيما بعد أنها تسكن في عمان نفسها حيث أعيش، وقد أصابتها أفكاري الغريبة وشطحاتي الروحية بشروخ هائلة، بعد قراءتها لروايتي، كما قالت لي لاحقاً، وبالتالي قررت أن تتعرف عليّ من قرب بأيّ طريقة، وهي تقول في أعماقها - لا بد لي من مقابلة هذا المجنون الذي كتب مثل هذا العمل - وذلك ما جرى!

بدت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، تنشغل بالتدريس جلَ وقتها، فيما تلتهم صفحات الكتب بلا هوادة ما

تبقى لها من وقت، كثيرة الكلام، كثيرة الحركة، تدخن بلا انقطاع تقريباً، من يراها لأول مرة يحسب فيها لوثة من العته أو الجنون، ولم تكن فاتنة بالمعنى المتعارف عليه اليوم لمقاييس الجمال التي يفضلها الرجال، لكنها كانت تمتلك جاذبية خاصة، وتقاسيم وجه ناعمة، وكانت تبدو جميلة حين تضع المكياج ونظارتها الطبية في أحيان قليلة. تميل إلى القصر أكثر من الطول، وإلى النحافة والرشاقة أكثر من الامتلاء، ولديها من الذكورة أكثر مما يبدو من الأنوثة، لكنّها كانت ذكية بطريقة فذّة، ومتمرّدة لا يمكن للمرء أن يجد مثلها كلّ يوم، خصوصاً في مدينة رتيبة وأقرب إلى القرى الكبيرة المحافظة مثل عمّان، وفوق ذلك كانت - أمل - مثقفة من طراز رفيع، تستطيع أن تحدثك عن ديستويفسكي وماركيز وزوسكند ودرويش ودنقل ومايكوفسكي بدون كلل، وعن التيارات السياسية السائدة في الساحة بلا ملل!

إن قلت إنها أقرب إلى اليساريين اللادينيين لصدقت، وإن بحثت في أعماقها عن ابن عربي والحلاج والسهروردي والقديسين لما أخطأت!

باختصار كانت مثل - كارثة لذيذة - هبطت عليّ بلا توقع، وأربكت لي حياتي الرتيبة، لكن نقاط الاختلاف الكثيرة

بيننا لم تكن عائقاً في أن تصبح صديقتي الأثيرة؛ إذ ساهمت بشكل عميق في تغيير الكثير من أفكاري حول الحياة، فقد كنت أبدو لها إنساناً نظرياً يطلّ على الكون من برج محصّن، ويخاف الاقتراب من وهج الحياة، لا سيّما مع القراءات الكثيرة للكتب ومشاهدة الأفلام السينمائية وهشاشة علاقاتي الاجتماعية، وتوجسي من الفعاليات الجماعية، أما هي فكانت تقول عن نفسها إنها جاءت من جحيم القاع، وتستطيع أن تتعايش مع كلّ الطبقات بكلّ جرأة، وتجرب الحياة بتمرد دون أن تفقد ذاتها، أو احترام الآخرين لها!

كانت تعرف انغماسي بالبحث عن الماورائيات، ولو بشكل نظري أكثر منه عملياً، إذ كثيراً ما شاركتني الأفكار نفسها حول هذه الموضوعات، وذات يوم قادتني إلى محاضرة للمعلم الهندي - رافي شنكار - في مركز الحسين الثقافي القابع في قلب العاصمة. كان الرجل شهيراً وله من الأتباع الملايين في شتى أنحاء العالم، ولمركزه المسمى - فن الحياة - فروع كثيرة، ومن بينها عمان، وكان يبدو لملايين الهنود مثل نبي يتمسّحون به حين يرونه، ولم تكد قاعة المسرح الكبير تتسع للمعجبين ولأنصاره الراغبين بمشاهدة روحاني شهير في هذا العصر بلباس أبيض فضفاض وشعر منسدل على الكتفين، وبدا لبعضهم حين صعد على المسرح مثل مسيح

بنسخة هندية جاء ليخلص العالم من جديد!

كانت تعاليم الرجل في خطبته بسيطة، تتلخص بالتركيز على التنفس والابتسام والتوازن الداخلي كحلّ مثالي لكلّ مشاكلنا ابتداء من الكآبة الذاتية وانتهاء بالقصف الإسرائيلي المتواصل لأهالي غزة، والدماء التي تسيل بلا توقف في العراق، وكلّ مشاكل المجتمع وبدت لي تعاليمه طوباوية وتركز على الخلاص الفردي، ولا يمكن أن تصلح على المستوى الجمعي، وخصوصاً عند العرب، فالهندي مطواع، ويؤمن كثيراً بفكرة المعلم أو الغورو وكلمته تعدّ مقدسة، وتعاليمه راسخة، أما نحن فكل فرد فينا يعد نفسه رئيساً ومرجعاً لا غبار عليه، ثم إن الابتسام في بلادي عملة نادرة، فما بالكم بالضحك، أما التنفس فأغلب الناس لا يستخدمون ربما خمسة بالمائة من الجزء العلوي للرئتين، ويملؤونها بدلاً من الأكسجين بدخان التبغ المتطاير من أنابيب الأراجيل والسجائر إضافة بالطبع إلى غبار الأرصفة!

لاحظت - أمل - أن انطباعاتي الكلية لم تكن مقتنعة بالرجل وتعاليمه كمخلّص لهذا العالم من الشرور والحروب، وأنّه صاحب نطاق فكري ضيق، ولا منهج واضحاً لديه يصلح للبشر كافة من مختلف المشارب، وبالتالي سيظلّ جهده

محـــدوداً رغم أنه يهدف إلى نشر الطاقة الإيجابية، وإعطاء لمسة من الجمال والأمل لبنـــي البشـــر، فحلولـــه فرديـــة، ومشاربـه -هندوسية- تستثني في النهاية ملايين البشر بقصد أو بدونـــه!

قضيت سنة كاملة برفقة - أمل - وربما لم نترك نشاطاً ثقافياً، أو عرضاً سينمائياً في عمّان إلا ذهبنا إليه، كانت تجرّني جرّاً أحياناً وكأنّها في مهمّة لإخراجي من كآبتي التي طالت، وكانت «دارة الفنون» في اللويبدة مكاننا الأثير نطلّ منه على المدينة التي كانت قرية صغيرة ذات يوم قريب ثم تمددت حتى وصلت الفحيص من الغرب، وكثيراً ما ذهبنا هناك في منطقة مشرفة وقصية عن العمران لمشاهدة جبال القدس وهي ترنو إلينا من بعيد، فيما يشتعل فينا الحنين بفعل القوارير التي كنا نشتريها من حانات الفحيص، فنبدأ بالغناء أو الرقص أحياناً على موسيقى جهاز التسجيل في السيارة وممارسة جنوننا اللذيذ بعيداً عن عيون المتربصين، ثم نعود لاحقاً لقضاء ساعات تأمل وهدوء للوحات التشكيلية المتجدّدة في رواق البلدة للفنون ذي الطراز الريفي الجميل، والانغماس في نقاش مع الأصدقاء هناك حول قضايا شائكة تبدأ من الألوان والموسيقى وتنتهي بأهمية

الحمير، فقد كان صاحب الرواق مغرماً بتصوير الحمير في شتى بقاع الأردن، وكان يحاول إقناعنا دائمًا أن الحمار كائن ذكي وصبور ويستحق الاحتفاء به، وذات مرة أحضرت له - أمل - كتاباً عثرت عليه في قاع المدينة بعنوان - تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب-، وهو كتاب تراثي قديم لأبي بكر محمد بن خلف المعروف بابن المرزبان، فطار فرحاً به، وقال ساخراً بأنه سيفكر في كتاب مشابه، وأخذ يفرك صلعته بقلق حتى توصل إلى عنوان طريف جعل رفيقتي المجنونة تضحك بطريقة هستيرية: «تفضيل الحمير على كثير ممن لم يلبس الحرير».

جرّبنا التسكع في قاع المدينة أيضاً، من - رأس العين - مروراً بشارع طلال وحتى المدرج الروماني، وكانت تقضي وقتاً طويلاً في تقليب الكتب المستعملة في أكشاك شارع - سقف السيل -، وحين يهدّنا التعب ننحرف إلى شارع فيصل لتناول الكنافة عند - حبيبة -، وينتهي المطاف بنا في أحد المقاهي الكثيرة المنتشرة في أول شارع الأمير محمد!

وذات صباح جاءتني - أمل - متجهمة على غير عادتها، وبدت فاقدة لحيويتها، كما لو أنها خارجة للتو من معركة عصيبة، وقبل أن أسألها عما أصابها اقتربت مني واحتضنتني وراحت تنتحب بشدة... وفي غمرة محاولتي تهدئتها، وفهم ما

جرى، وفي ظل بكائها الحارق، استطعت أن أجمع من شتات كلماتها المتقاطعة سؤالاً واحداً، كانت تكرره ولا يتناسب أبداً مع شخصيتها المتفائلة:

- متى تنتهي الحياة على هذه الأرض ونرتاح...!

مسدسات غاضبة

«يا جـمـاعـة الخـيـر، والله الذي لا إله إلا هو، رأيت قطع الذهب بنفسي، وعبأتها في الجرار بيدي هاتين حتى امتلأت، وأغلقتها بالقماش والطين...»

كنا قد بدأنا الحفر في تلك المغارة، بناء على تعليمات الشيخ العراقي، وكان قد طلب منا أن نحضر بضع جرار فخارية فارغة من السوق، ولم يكن أمر الوصول إلى الصناديق صعباً فقد كانت الخارطة بحوزتنا، وكان الشيخ قد أمرنا أن نتوضأ أولاً ونتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن نصفّي النيّة، ولا نخاف من أيّ شيء قد يحدث لنا أثناء الحفر، فهو سيقوم بتعطيل المانع، ودخل معنا بنفسه في ظلمة المغارة التي لم يكن يشقها إلا ضوء خافت لمصابيح قليلة، فقد كان الاحتراس واجباً من أيّ قادم، وأيضاً من الرصد إن وجد، وبدأ يقرأ:

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الله لا اله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء، وسع كرسيّه السماوات والأرض، ولا يؤودهُ حفظهما وهو العلي العظيم.

كرر - آية الكرسي - ثلاث مرات، ثمّ ركزّ على ترديد آخر الآية مراراً ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾، وكان قد أشعل بخوراً قال إنه يصلح لفك الرصد، ولا أدري كيف خلط هذه الأشياء معاً، فقد كنّا اشترينا له فيما أذكر مجموعة من المواد التي طلبها: كبريت وحلتيت، ولبان ذكر، وحرمل، وقصبر، وجاوي، وبزطم، ونيلة زرقاء، وقطران، وصفار بيض، وكدنا نختنق من رائحة هذا الخليط، وهو يقرأ المعوذتين وسورة الإخلاص، وأذكاراً وعبارات لم أفهمها، وهو يصرخ بقوة -الوحا الوحا..... الساعة الساعة -.

ثم صمت وقال، احفروا هنا، وأشار إلى زاوية، فانهال ترابها، ولم نتعب كثيراً في الحفر، فقد بدت لنا الصناديق جلية، خصوصاً وأن هذا الكنز حديث نسبياً قياساً بالدفائن الرومانية

والهيلينية، وأشار علينا أن نبدأ بتعبئة كلّ جرة، ورحنا مثل التائهين، نملأ الجرار التي معنا من النقود الذهبية التي أظهرت لمعانها على وجوهنا المتعبة فأشرقت بالفرح وشيء من الجنون، ثم طلب منا أن نسدّ فتحات الجرار بقطع من القماش ثم نغطيها بالطين، وبالطبع سمعنا وأطعنا، والمهم أننا نقلنا الجرار المقفلة بالكامل، وأبقيناها مغلقة بناء على طلبه، وحين وصلنا المزرعة هنا وزع علينا من الجرة الأخيرة المفتوحة بالتساوي ولم تكن قد امتلأت إلى نصفها، ثم وقف أمام بقية الجرار المغلقة، وبدأ يقرأ أوراداً خاصّة به لم نفهم منها شيئاً، ثم قال:

- اخفوها جيدا في مكان حصين هنا وحذار أن تفتحوها إلا بعد أن أخبركم.

بعد أيام اختفى الشيخ بشكل مفاجئ، وعلمنا أنه سافر إلى العراق، واستطعنا الاتصال به بعد محاولات يائسة، فأخبرنا أنّ أمراً عائلياً جعله يسافر وسيعود بعد أسبوعين، لكنّه أوصانا مجدداً أن لا نفتح الجرار بأيّ حال من الأحوال حتى يكون موجوداً بنفسه، وعشنا تلك الفترة في حالة من الطوارئ، ننام ونصحو ونحن نحلم بالقصور، ونضع الخطط لمستقبل مشرق لنا جميعاً، ونعيش قلق أن يقوم أحد بسرقة كنزنا العظيم!

وعاد الرجل يؤكد: والله العظيم يا أستاذ لمست الذهب بيديّ وعبأته بالجرار، ولم أكن أحلم أو أتخيل، ليرات رشادية ونسمّيها عصملية أكيد تعرفها أكثر مني!

آثرت الصمت كي لا أبدو أمامهم جاهلاً فيما واصل الرجل كلامه:

المهم أننا استبطأنا رجوع الشيخ من سفره، ومضت فترة طويلة دون أن نسمع أخباره، فجاء أخي هذا- وأشار إلى أحد الرجال الذين معنا وكان يبدو لي شاباً في نهاية العشرينيات- وقال: الذهب ذهبنا، وهو في الجرار، فلماذا لا نكسر واحدة منها ونعيش على ما فيها بدل الانتظار، وحاولنا أن نثنيه عن عزمه، لأننا قطعنا عهداً على الشيخ أن تفتح الجرار في حضوره، لكنه أصر -سامحه الله-، فكسر واحدة، ويا للخسارة لقد وجدناها مملوءة بالتراب!

إلى هنا ظننت نفسي أقرأ مجلدات ألف ليلة وليلة، أو أشاهد فيلمًا لمغامرات أنديانا جونز، أو مسلسلاً كرتونيًا لسندباد!

وقبل أن أقول لهم - وأنا مالي ولكلّ هذه الحكايات - تابع الرجل القصّة موجهاً كلامه لي مباشرة:

المهم يا أستاذ أنّ الشيخ الذي طلسم الجرار لم يعد، وربما

يكون قد قتل في الأحداث اليومية التي تجري في بلده، فقد اختفت عنّا أخباره..!

ثم فجأة بدا لي الرجل ضعيفاً وهشاً يكاد يجهش بالبكاء وهو يقول:

- وحنّا داخلين على الله وعليك تحلّ الموضوع، وتفك الطلسم وترجع لنا ذهباتنا -..!

هنا نطقت بصوت أحسست به لم يغادر شفتي وبأحرف مقطعة لكنه كما يبدو وصل إلى آذان الجميع مثل قنبلة:

بس يا جماعة الخير أنا ما بفهم بهاي الشغلات!

ولا أدري حينها ما الذي جرى، وكيف تحول الرجال الذين أمامي إلى وحوش كاسرة تريد الانقضاض عليّ، وسمعت أصوات مسدسات يجري شحنها بالطلقات، وعبارة بدت لي مثل جاروشة حديدية تحرث في رأسي، وكأنّ الجمع الغاضب قد أطلقها في وقت واحد:

شو تقووووووووول...!!

أرض مجوّفة

وصلني «إيميل» جديد مرفق بروابط لفيديوهات على اليوتيوب، ومجموعة من الروابط الأخرى لمقالات ومواقع متخصصة، وكلّها تتحدث عن شيء واحد تقريباً أسمع به لأوّل مرة هو - الأرض المجوّفة -، وكتب الحسيني - المتنكر - خلف الرسائل الالكترونية بضعة أسطر يقول فيها:

«لا أريد أن أفسد عليك المفاجأة فيما ستكتشفه بنفسك، ودعني أسمع منك في المرّة القادمة عن رأيك بما وصلك...»

قضيت أياماً عديدة، وأنا أشاهد ما وصلني، وأيضاً انشغلت بقراءات مكثفة عن الموضوع الذي ربما يكون أخطر الاكتشافات التي لم ينتبه إليها معظم البشر، لا بل سيتخذونها هزواً ولن يصدّقوا أمرها، فالكتب التلقينية في المدارس وصولاً

إلى الجامعات وما بعدها حتى يصل المرء إلى الممات كفيلة بحكاية واحدة في ما يُسمَّى علم الجيولوجيا عن تكوين الأرض حيث الطبقات تلو الطبقات، فهناك القشرة الأرضية، ثم الغلاف الصخري، ويليه الوشاح العلوي، ثم السفلي، ثم النواة الخارجية، وأخيراً النواة الداخلية حيث بلايين الأطنان من المعادن النارية المنصهرة.

إذن هذه هي الحكاية كما علمتنا إياها الكتب المدرسية: صخور وأتربة وترسبات وصهارة ولا شيء غير ذلك!

ثمة حكايات أخرى ظلت حبيسة الأدراج، ويتهم من يقول بها بالجنون، ومخالفة العلماء، غير أنّ من أطلقها أيضاً من بعض العلماء المشهورين أنفسهم، لكنّ أحدا لم يأبه لهم!

في العام ١٦٩٢م قدم الفلكي البريطاني إدموند هالي نظريته الجديدة للمجمع العلمي الملكي، والتي يقول فيها إنّ الأرض التي نعيش عليها ليست مصمتة، بل مجوفة من الداخل، ولها فتحتان واحدة في القطب المتجمد الشمالي، والأخرى في القطب الجنوبي، وفي داخلها نواة صلبة أو شمس مضيئة يعادل حجمها كوكب عطارد، وبالطبع فإنّ هذا الفلكي ليس هاوياً بل عالم معروف في زمانه، وقد اكتشف المذنب

الذي سمّي على اسمه - مذنب هالي -، وبعده ظهرت كتب تتحدث عن رحلة إلى الأرض المجوفة من بينها كتاب - جولس فيرن - في العام ١٨٦٤ م، وغيرهم كثيرون ممن كانوا يؤمنون بأنّ هناك حياة كبرى في داخل الأرض، لا بل إنّ بعض العلماء السوفيات من أمثال ميخائيل فاسين، وألكسندر شكيرباكوف قالوا بأنّ جميع الكواكب أيضاً مجوفة، إذ لو كانت مليئة بالصهارة النارية في أعماقها، ودارت حول نفسها بمثل هذه السرعات الهائلة فلا بدّ مع مرور الزمن أن يحدث هذا التجويف، وهو ما يدعى نظرية - الطرد المركزي - في علوم الميكانيكا أو القوى النابذة إلى الخارج!

بدا لي الأمر منطقياً ومنسجماً مع طريقة تفكيري العلمية، وقد تعودت أن لا أنكر شيئاً بل أستمر بالبحث عن الحقيقة، فالإنكار حاجز للمرء عن المضي إلى الأمام!

فلو أخبرني أحدهم أنه يستطيع أن يخترق جداراً بجسده ويمرّ منه، فإنّي أمام خيارين؛ إما أن أنكر ذلك، وبالتالي أضع حاجزاً لمعارفي، أو أن أضع احتمالية للأمر، وبالتالي أسمح لنفسي بوجود إمكانية لحدوث ذلك، وقد لا أفهم آلية الأمر في حينها، ولكنها قد تتكشف لي فيما بعد!

وهذا ما حدث لي مع الغبطة التي هبطت عليّ وأنا أقرأ

عن باطن الأرض المجوف والمليء بعناصر الحياة المذهلة هناك حيث تعيش الحيوانات العملاقة، والأشجار النادرة، والأقوام الراقية من البشر ضمن حضارة متطورة جداً!

لقد فتحت لي نظرية - الأرض المجوفة - أملاً لا يمكن مساومة لذّته بكل لذائذ الدنيا.

تصوّروا معي فقط أنّ نصف قطر الأرض يبلغ ٦٣٧٠ كيلو متراً، يا لها من رحلة طويلة للوصول إلى أعمق نقطة فيها، فلو حفرنا نفقاً رأسياً لاحتجنا إلى ساعات طويلة في طائرة سريعة جداً للوصول إلى الأعماق، فمن أين جاء علماء الجيولوجيا بنظرياتهم التي تبدو حقائق راسخة، وهل أجهزتهم الاستشعارية ونظريات الأمواج الارتدادية لها هذه الدقة لمعرفة ما في الأعماق، وهل البراكين تأتي فعلاً من تلك المسافات البعيدة وتبقى بحرارتها التي تذيب الحجارة أم أنها تأتي من طبقات قريبة من سطح الأرض عبر ممرات تنتشر كالشرايين داخل جسد أمّنا الكبرى!

تلك أسئلة قد راودتني كثيراً وغيرها أيضاً، وأنا أقرأ بأنّ الروس الذين لديهم أعظم الحفارات في العالم استطاعوا أن يحفروا في العام ١٩٩٤ م بئراً في جزيرة - كولا - ووصلوا فيه إلى ١٢ كيلومتراً فقط، ولم يستطيعوا تجاوز هذا العمق، وهو أكثر

الأعماق التي توصلت البشرية إليها كما يبدو!

يا إلهي هذا يشبه أن تخدش قشرة بطيخة بإبرة تقريباً، ولا يكاد يرى ذلك أحد فكيف بالله عليك ستعلم ما فيها من أسرار!

ومع ذلك يهرف ما يسمّى بعلماء الجيولوجيا طويلاً لشرح معلومات مضللة على أساس أنها حقائق أكيدة. تصوروا فقط حجم الخديعة التي يقع فيها البشر في مثال بسيط كهذا، فما بالكم بالعلوم الأخرى!

تقول الحكاية باختصار إننا نعيش على قشرة أرضية لا يتجاوز عمقها ١٦٠ كيلومتراً، ثم تبدأ فجوات أرضية وكهوف عملاقة تضج بالحياة من كلّ صنف، وطبقات أرضية أخرى، وصولاً إلى نقطة تصبح فيها الجاذبية صفراً وهي منتصف المسافة بين الجاذبية لسطح الأرض الخارجي وتلك التي للسطح الداخلي المجوف، وكأن الخالق الأكبر قد وضع برزخاً بين سطح الأرض وباطنها، وكأنها طبقات تحت بعضها وأقطار لا ينفذ منها أحد إلا بسلطان، ولهذا فإنّ أفضل طريقة للدخول إلى باطن الأرض يكون عبر الفتحتين العملاقتين من القطبين الشمالي أو الجنوبي، مع وجود فتحات أخرى كثيرة في مناطق أخرى محددة على سطح الأرض، مثل الأهرامات المصرية،

ومناطق المايا، والهمالايا وغيرها!

يبدو لي هذا نوعاً من الهذيان أليس كذلك..!

وربما ما أراه في هذه الفيديوهات والشروح محض خيال جامح، ولكنّ كلّ الإشارات التي تصلني، وحكاية فيدروف، وكهوف الهمالايا، والإنسان الفائق الذي تبشر به باتي تجعلني أعيد النظر في كلّ شيء تعلمته من قبل، شيء يشبه شطب المعلومات بالكامل واستبدالها بأخرى جديدة!

إذن ربما تكون هناك في أقصى الأعماق مدينة الحكمة والسلام التي يتحدثون عنها تقبع بانتظاري!

آه يا – شامبالا – يا فردوسنا المفقود..... أيّ الطرق تقود إليك!!

أمل مكسور

مرّ عام كامل على نجاة الأرض من الكارثة، وأصيب خلق كثير بالإحباط من عدم حدوث شيء يوم ٢١ ديسمبر ٢٠١٢، فلم تطلع الشمس من مغربها، ولم تقم القيامة، كما استيقظ كثيرون وكأنّ كابوساً قد أزيل عن صدورهم، فيما لم ينتبه بشر آخرون إلى هذه الحكايات أساساً، وأصيب بعض الروحانيين بخيبة أمل، وكان تفسيرهم الأكثر رواجاً أنّ تزييفاً قد حصل للتاريخ الميلادي «الغريغوري»، فنحن لم نكن حينها في العام ٢٠١٢م فعلاً، بل في العام ٢٠٠٧م، وبالتالي ستحلّ هذه الكارثة في الموعد الحقيقي أي في ٢١ ديسمبر ٢٠١٧م، وأنّ التقويم الذي وضعه الروحانيون في حضارة المايا البائدة دقيق تماماً، أما عدد آخر من المتحمسين وعلماء الفلك فقد حاولوا الشرح بأنّ المقصود ليس نهاية العالم، ولم يقل أبناء المايا بذلك،

بل نحن من أساء تفسير التقويم الخاص بهم، فالعالم الذي نعرفه لن يغدو مثل ما كان عليه من قبل.

ثمة صحوة روحية للبشر في هذا التوقيت، وهي التي ستغير شكل الحياة على الأرض!

بالنسبة إلي فقد احتفلت بنجاتي من الورطة التي وضعت نفسي فيها أمام الرجال الغاضبين في - الأغوار -، ولولا حكمة - أبو صالح - التي أنقذتني في تلك اللحظة الحاسمة وقوله لهم، إنّ الأستاذ يقصد أنّه لا يعرف هو شخصياً طريقة الحل لكنّ لديه صديقاً سيعرفنا عليه، وهو الذي على يديه سيتحول التراب في الجرار إلى ذهب، لأصبحت في عداد عباد اللّه المرحومين . .!

ثم تطمينه المتواصل لهم بأنني سأحضر من يفكّ شيفرة العراقي، وبالتالي تعود الجرار كما عرفوها مليئة بالقطع الذهبية، وطلبت منهم تأكيداً لهذا الأمر أن يعطوني حفنة من تراب الجرة التي كسروها لكي أحملها معي لذلك الرجل، ويبدو أنّه لم يكن لديهم أيّ حلّ آخر غير إطلاق سراحي والسماح لي بالعودة إلى عمّان على أن آتيهم بمن يحقق لهم المعجزات!

وبالطبع وجدت طريقة لإقناع - أبو صالح - فيما بعد عبر أصدقاء متنفذين أن يعتقني من هذه المهمّة وينساني تماماً،

ويعتبر ما حدث سوء فهم، ورضي الرجل مرغماً بشرط أن أحتفظ بسرّ ما رأيت ولا أفشيه لأحد أبداً!

مرّت فترة من الوقت لجأت فيها إلى العزلة من جديد، فقد سافرت - أمل - إلى السعودية للعمل معلمة، وشعرت بفؤادي فارغاً، وعجبت كيف يمكن لامرأة مثلها معجونة بكلّ هذا التوهج أن تعيش في بلد يتعامل معها كعورة، ومتاع ينبغي أن تعيش فقط مكرسة لخدمة الرجل، لا حول لها ولا قوة، وبالطبع لم تتكمن من السفر وحدها والعيش هناك حسب القوانين الشهيرة عندهم، بل اضطرت إلى أخذ أخيها الأكبر معها كمحرم، حتى يتم السماح لها بالعمل، وتخيلتها وهي تلبس العباءة وتلتفع بالحجاب أو النقاب في إحدى القرى النائية في صحراء نجد أو جبال تهامة، تكاد تتعثر في مشيتها، إذ لم تعتد مثل ذلك اللباس من قبل، وقلت في نفسي:

لقد حكمت - أمل - على نفسها بالموت من أجل ريالات معدودة تنتظرها عائلتها المحتاجة فإن لم تمت من القهر لأنها لا تستطيع أن تعبّر عن أفكارها الصاخبة وتمردها الحاد بصوت مسموع هناك، فإنها لا بدّ ستموت حزناً لبعدها عن عمان المدينة التي كانت تشكل لها الرئة الثالثة لتتنفس الحياة الحقيقية...!

اختفت - أمل - إذن فجأة كما ظهرت، وأغلقت حسابها على الفيس بوك، وأعلنت نوعاً من الانسحاب إلى الذات، ربما أفهمه الآن جيداً كما أفهم ذلك البكاء الحارق الذي أغرقتني فيه ذات صباح، لكنني ما أزال أتذكر بشكل جليّ حكايتها لي، وأكاد أعدّ كلماتها كلمة كلمة وهي تمرق الآن مجسّدة بالصور أمام ناظري..!

رؤوس مفخخة

لم أردّ بعد على رسالة صديقي المتخفّي، فقد أصبت بما يشبه الصدمة لما قرأت وشاهدت، وعجبت كيف أن آلاف المقالات والفيديوهات والكتب والمحاضرات بل والمؤتمرات والجمعيات المتخصصة في هذا الموضوع الخطير في ديار الغرب، ونحن ننام مطمئنين وغارقين في التجهيل المبرمج، وجلّ ما تبثه القنوات، انشغالات بفستان مطربة من الدرجة العشرين، وحشد الجيل الجديد ليكون طموحه الأكبر أن يصبح مغنياً أو لاعب كرة قدم أو حتى راقصاً وهي الطريقة الأسرع للشهرة وجني الثروة، أو الصحو والنوم على تجّار الجهل المقدس عبر إطلاق فتاوى عن حكم نكاح الحيوانات، والغش في الامتحانات، وفوائد بول البعير، وما هو حكم من يأكل بيساره لا بيمينه حتى لو كان مقطوع اليد، ويناقشون في كليات الفقه رسائل دكتوراه

عن حكم الأصوات الخارجة من فتحات الجسم من غير الكلام، و - ما هي الطريقة المثلى لإخبار زوجتك الأولى بزواجك من الثانية -، وغثاء كثير، فيما ينشغل كلّ من أطلق لحيته، ولبس ثوباً قصيراً، ووضع في يده مسواكاً في تقسيم الكون كله إلى فسطاطين (دار الإسلام ودار الكفر) وحتى أفعال المرء البدهية إلى حلال أو حرام، وفيمن يحق له دخول الجنّة أو النار، وكأن الله قد وضعهم حرّاساً عليها، وأعطاهم مفاتيح أبوابها، حتى تحوّل الدين نفسه إلى جحيم للداخل فيه، وجحيم للخارج منه، فيما ينتظر فتية مثلهم بلحى كثّة ولباس أفغاني، ورؤوس مفخّخة بالكتب الصفراء، وسلاح منتج في - بلاد الكفر - نفسها، أفضل الطرق لتدمير حياة الآخرين، وإفساد الزرع والضرع بغية الوصول إلى الحوريات السبعين الجاهزات للنكاح، حيث يكن واقفات لاستقبال كلّ واحد منهم على أبواب الجنة، وبالطبع يرى هؤلاء أنّ الوسيلة الأسرع لذلك إزهاق النفس بالعمليات الانتحارية، حتى لو كان في المساجد والمستشفيات التي تغصّ بالأطفال والشيوخ والنساء!

باختصار كنت أشعر بأننا أمّة فيها الكثير من الجهلة والنيام، أو من الضعاف الأيتام الذين ينتظرون الفتات على موائد الأعداء واللئام!

كان صديقي ينتظر منّي رداً على ما شاهدت، بل لم يعرف أيضاً ربما أنّي خلال الأشهر الماضية في ابتعادي عنه، حصلت على كتب أخرى في هذا الموضوع، ورحت أبحث بنفسي عن مسارب جديدة، انفتحت عليّ، ولا أدري فربما يكون هو لم ينتبه إليها من قبل، ولهذا دبّجت له هذا - الإيميل - الطويل لأخبره بما عرفت، وأستفسر منه عما لم أعرف بعد:

أنا حزين يا صديقي بقدر فرحي، حزين لأنّني لم أكن أعرف عن هذا الموضوع من قبل شيئاً، ولأنّه ليس مطروحاً في عالمنا العربي الذي يكتفي بكتب الجغرافيا المدرسية، ولكنّي فرح أيضاً لأنّي أطللت على هذا العالم المدهش والخفي، الذي يبدو لي حكاية من غرائب القزويني وعجائبه، أو قادمًا من رحلات ابن بطوطة، وكلما حدثت أحداً بالأمر تولّى عنّي وظنني من الكاذبين أو الحالمين!

طيب لماذا لا يكلف أحد المنكرين نفسه ويبحث عن الأمر؟ لكن ما أسهل التمرغ في نعيم الجهل، والرضى بالوصفات الجاهزة، وما أصعب النحت في الصخر بحثاً عن المعرفة.

يبدو يا عزيزي أنّ أبناء جلدتنا في وضع بائس، لا يكتفون

بأنّهم لا يعرفون، بل لا يعرفون بأنّهم لا يعرفون، وتلك كارثة محققة، أما المصيبة التي تهون دونها كل المصائب فهي أن ما يسمّى «النخبة» فيهم، يهيمون في عماء بهيم لا يكتفون أيضاً بالإنكار والتكرار والاجترار، بل بتضليل بني قومهم جهلاً، أو مع عقد النية على ذلك!

لقد توصلت من خلال قراءاتي الكثيفة خلال الفترة السابقة وبحثي المعمّق أنّ هذه الفكرة التي تشير إلى أنّ الأرض مجوّفة من الداخل معقولة جداً، ومقنعة أكثر مما وصلنا عبر الكتب المدرسية وتضليلات العم «غوغل» و«ويكيبيديا». خصوصاً وأنّ سرعة دوران الأرض حول نفسها تبلغ نحو ١٦٧٤ كيلومتراً بالساعة، وهي سرعة هائلة لكرة مصمتة ومليئة بالصهارة، هذا بالطبع عدا عن سرعتها الأعلى في دورانها حول الشمس، ولكن يبدو أنّ هناك الكثير من الدلائل التي من الممكن أن تجعل بعض الباحثين المتنورين والمتمردين يحاولون إعادة النظر بما وصلهم من المسلمات!

شاهدت فيديوهات مدعّمة بالوثائق تشرح كيف أنّ الزعيم الألماني هتلر الذي يتهمه أعداؤه بالجنون، كان قد اكتشف من خلال علمائه وبعثات - الرايخ الثالث - طرقاً سرّية في القارة المتجمدة الجنوبية - أنتاركتيكا - وربما يكون قد بنى قاعدة

سرية ومدناً تحت الأرض لعدد كبير من نخبة شعبه، الذين أرسلهم هناك بعد أن بدت خسارته جلية في الحرب، ويقال بأنّ الرايخ الثالث ما يزال يعمل هناك في مناطق معزولة وشديدة السرية في طبقات القارة البعيدة عن رصد البشر أو حتى الطائرات، وأنّ العلماء الألمان استطاعوا التواصل مع أحد الأجناس غير البشرية المتطورة علمياً، والتي ساهمت في المساعدة بتطوير - الأطباق الطائرة -، ولا يوجد ما يمنع أن يكون علماؤه المختفين هناك قد أنجزوا هذا الاختراع وطوّروه حيث إن كلّ الأطباق الطائرة التي شاهدها البشر في كلّ أنحاء الكون طيلة نصف القرن الماضي تعود إليهم!

قد تبدو هذه المعلومات مجرد خيال علمي، أو أمل بائس لكثيرين ممن يطلعون عليها، لكنّ الحملة السرية التي جرت ما بين ١٩٤٦و١٩٤٧ بهدف ملاحقة النازيين في - انتاركتيكا - وشارك فيها الكابتن الأميركي ريتشارد بيرد لم تأت من فراغ فقد كانت حقيقية، ومنيت بهزائم فادحة من قبل قوات تمتلك أسلحة متطورة جداً، ولم ير الحلفاء مثلها من قبل قط...!

أحاسيس معدنية

لم أجد - أمل - أشد هشاشة من ذلك اليوم.

أرهقتني دموعها السخية، وهي التي كانت تبدو لي متماسكة دائماً، ومفعمة بالحيوية لا تكاد الضحكة تفارق قسمات وجهها، وما تخيلت يوماً بأنّها يمكن أن تبكي أمامي بمثل هذه الحرقة، كانت تبدو لي عصيّة على الحزن، من شدة احتفائها بالحياة، ولا تكاد تترك ثانية منها دون أن تمتص بهجتها حتى الثمالة، فكيف جاءتني في ذلك الصباح امرأة ضعيفة منقبضة النفس وفي أقصى درجات العزلة!

تركتها على سجيتها تتنهد، ثم تصمت، وتعود لتتكلم ثم تنشج من جديد، وبدا لي فعلاً أنّ شدّة القرب حجاب، فهل هذه هي الفتاة التي كنت أرافقها بشكل شبه يومي منذ أكثر من سنة، أم أنني أساسا لم أنتبه إلى هذا الجانب فيها، وكنت

غارقاً بمشاكلي الخاصة حيث أنستني ما حولي!

يا إلهي كم كنت أنانياً أتوقع منها أن تخفف من إحباطاتي، وتسبب لي الحبور، وقد فعلت حتى وصلت إلى طاقتها القصوى فانهارت في النهاية، وكشفت الجانب الآخر فيها الذي لم أمنحه من قبل ما يستحق من الانتباه!

أذكر الآن وأنا أجلس أحتسي ذكراها مع السائل الذهبي الحارق الذي أطفأته بالكثير من الثلج بأنها قالت لي حينها كلامًا كثيراً، أذكر منه أشياء، وتغيب عني منه أشياء أخرى، فيما يبدو لي أنني وأنا أُواصل غيابي عن الوعي أؤلف حكايات عنها تبدو ضربًا من الخيال ولم تحدث قط معها بل مع شخصيات أخرى قابلتهم أو ربما قرأت عنهم ذات يوم، فالذاكرة تئن من العطب المؤقت، والروح مشتتة ما بين الأعالي المأمولة، والأرض الصلدة التي تطحن في - بعدها الأدنى- كلّ رغبة في التحليق!

قالت لي بأنّ حياتها عبارة عن محطات لا تنتهي من العقد التي ما إن تحلّ واحدة حتى تظهر لها أخرى، فبالإضافة إلى الوضع المادي البائس لما تبقى من العائلة فإنّ الماضي كله يطاردها، واعترفت لي بأنّ تقربها منّي كان خارجاً عن إرادتها، «ثمة من يدفعني دفعاً إلى الاقتراب منك» وبدت لي خائفة

ومصفرة الوجه، وكأنّ ثمة من يراقب كلّ كلمة تقولها لي!

منذ الصغر لاحظت أن عائلتي غريبة، كان والدي مسافراً أغلب الوقت، وحينما بحثت عنه بعد أن وعيت ضرورته أخبرتني أمي أنّ سفره ربما يطول، ومنذ سنوات قليلة فقط عرفت أنه توفي في غربته ودفن هناك، وكانت أمي تبدو لي صامتة معظم الوقت وغريبة الأطوار، ولها أوقات تخلو فيها لنفسها لا تحبّ أن ترى أحداً منا، أقصد أنا ابنتها الوحيدة وأخويّ!

والآن يمكنني أن أعترف لك بأنّ ذلك العالم الذي تحدثت عنه في روايتك أكثر غرابة مما ذكرت، وأعرف بعد مخالطتي لك طيلة كلّ هذه المدة أنك تبدو طيب القلب، وتتورط بالكتابة النظرية عن عالم حقيقي، ربما هو أقرب إليك مما تعتقد، ولكنه أكثر شراسة مما يخيل إليك!

لقد أطللت عليه، وخبرت أمره بنفسي، ولكني لن أفصح لك عن تفاصيل قد تودي بي، كما أودت بأبي، وهي نفسها التي تركت أمي أيضاً شبه مشلولة وتكاد تهيم على وجهها دون وعي، ولكن تلك - الأطياف غير البشرية - ليست وهمًا بل أمر حقيقي، صحيح أن معظمها يعيش في عوالم أخرى، ولها حياتها الخاصة التي لا تتقاطع مع حيواتنا نحن البشر على هذه الأرض، لكن التدخلات تحصل أحياناً بفعل فاعل عن نيّة

خبيثة، أو بالرغبة في التواصل من الطرفين فمن يطرق الباب قد يفتح له، أما المسألة الأخطر فهي أن بعضها قد تتجسد، وقد تغير ثوبها مثل أي أفعى، لا بدّ أنك تفهم ما أعنيه!

هناك أناس يفكرون بهذا العالم كثيراً، فيجذبونه إليهم، لا تنس أنّ الفكر طاقة هائلة لها ترددات تخرج من الدماغ، وهي مرئية لهم، لأنها تخترق عوالمهم، وهناك أناس يبحثون عنهم عبر كثرة التفكير التي هي في النهاية رسائل إليهم مثل موجات كهرومغناطيسية، وبالطبع فإنّ من يتورط بالأمر يصل إلى نقطة اللاعودة، حيث عليه أن يمضي إلى الأمام في عبوديته لهم، ودفعه الثمن باهظاً!

كنت أظن أنني سأجد لديك الحل، فقد سئمت الذهاب إلى الشيوخ الكذبة والمشعوذين والسحرة، والأدعياء وأطباء النفس الذين لا يبيعوننا غير الكلام!

إن أحببت أن أدخلك إلى هذا العالم لترى بنفسك، أخبرني!

وإن رفضت فذلك خيارك، المسألة لا تكون بالإجبار أبداً، وفي الحالة الثانية لا أستطيع البقاء قربك طويلاً!

ورأيت أمل قد دخلت في نوبة البكاء من جديد، وقالت لي:

في ابتعادي عنك أحميك منّي، لا أريد أن أتسبب لك بالأذى فربما أحياناً لا أكون نفسي!

وفي كلّ الأحوال عليك أن تقرر، لكنهم يريدونك أن تكون معهم، هل فهمت؟

لم أفهم كثيراً مما قالت، وبدت لي كلماتها ملغمة بالرموز، ولم أتوقع أن تكون أمل من أولئك الذين لديهم معرفة أو علاقة بهذا العالم اللامنظور، وحين حاولت أن أستوضح أكثر، قالت لي:

ستعرف أكثر إن اتخذت قرارك....!

وغير ذلك سأكون مضطرة لأقول لك وداعاً!

كانت تبدو لي في أكثر حالاتها جدية وحزناً في الآن نفسه، ولما وضعتني بين هذين الخيارين، أي البقاء معها وبالتالي الدخول إلى هذا العالم الذي تشير إليه، أو الانفصال تماماً، ولما أحسست أيضا بأن الأمر كله يبدو لي غير مفهوم ومحيّر وأنه قادم من حوار في فيلم سينمائي للخيال العلمي، ولم أكن أعرف إن كانت أمل أصلاً من المستعبدين لأية جهة كانت، وهي التي كانت منغمسة بالحياة واشتراطاتها اليومية بكافة تفاصيلها، حينئذ نظرت إليها طويلاً ثم قلت لها:

لا أستطيع، ولا رغبة لي بالدخول إلى هذا العالم من غير

معلم حقيقي يعرف مداخله ومخارجه، أنت نفسك تبدين ضحية له ولن تفيديني بشيء هناك.

إنه فخ أليس كذلك وقعت به وتريدين أن تجذبي إليه غيرك!

وبدون تردد انتفضت وكأنها تحولت إلى فتاة أخرى غير التي عرفت، وقفت بسرعة، وغادرت بصمت بارد، وشعرت كما لو أني أودع روبوتاً معدنياً خالياً من أيّ إحساس، وأن ثمة جهة غامضة أمرتها فأطاعت دون أي تردد!

وكان ذلك آخر عهدي بها!

حيرة ضارية

الحكاية الأغرب هي التي جرت مع الأدميرال بيرد في ١٩ شباط عام ١٩٤٩ حينما أتيحت له فرصة الدخول إلى -الأرض المجوفة- وبقيت مذكراته طيّ الكتمان حتى بعد وفاته في العام ١٩٥٧ لخطورة ما فيها، حتى جاء من نشرها عبر شبكة الإنترنت في العام ٢٠٠٦ وأصبحت متاحة للجميع، وتلك بحاجة إلى أن يتنفس المرء الصعداء، ويجهز فنجان قهوة ليقرأها بوعي كامل من شدة ما تأخذه معها من نشوة يجمح فيها الخيال كثيراً، ويتفوق على ما يصل إليه حتى أشدّ الحالمين!

لقد حلق الرجل بطائرته ساعات طويلة باتجاه القطب المتجمد الشمالي، وكان معه أحد مساعديه، وبدأ يسجل في دفتره أولاً بأول ما يشاهده، وأحوال الطائرة، وهاله أنّ الأرض

التي تحته قد ظهرت فيها الأشجار وتراجعت الثلوج، ثم رأى بعض الحيوانات التي تشبه الفيلة ولكنّها أكبر منها، مثل ذلك الكائن المنقرض - الماموث - ورأى أشجاراً عملاقة وسهولاً شاسعة ذات نباتات ضخمة الأوراق، وظهر له فجأة ما يشبه المركبة المستديرة الضخمة تطير قربه، ثم أخيراً شعر كما لو أنّ الطائرة قد توقفت في الجو وانطفأت محركاتها، وكأنّ هذه المركبة الغريبة قد تحكمت بها، وسمع صوتاً عبر أجهزة الطائرة اللاسلكية بلكنة ألمانية يرحب به، وأنه سيتم إنزال طائرته إلى سطح الأرض، ورأى رجلين أشقرين طويلين يقودانه بعد ذلك عبر ما يشبه العربة، وقد تحركت بهم بسرعة هائلة ودون أي ضجيج داخل نفق إلى مدينة بدت له متطورة جدًا، ويغمرها ضوء هادئ، ولاحظ - بيرد - فيما سجله في مذكراته لاحقاً أن البناء مذهل في تكوينه، والتكنولوجيا متقدّمة جداً قياساً لما شاهده في حياته من قبل، وخلاصة الأمر أنّه وصل إلى قاعة واسعة لمقابلة رجل بدا له المسؤول الأول هناك، وقد شعر بعمق حكمته، وتقلب الزمان عليه رغم ما ظهر من حيويته وشبابه، و قدّم لبيرد النصيحة قائلاً:

«لقد سمحنا لك أن تدخل هنا؛ لأنك شخص نبيل ومعروف على سطح العالم أيها الأدميرال، أنت الآن في منطقة

الأرياني في القسم الداخلي للكرة الأرضية، لن نؤجّل زيارتك طويلاً، وستعود بأمان إلى سطح الأرض، والآن أيّها الأدميرال سأخبرك لماذا استدعيت إلى هنا، إنّ اهتمامنا بجنسكم البشري الذي فجّر القنابل الذرّية الأولى فوق هيروشيما وناغازاكي في اليابان بدأ يزداد، والأحوال عندكم أصبحت مزعجة، ولهذا أرسلنا إليكم المركبات الطائرة إلى سطح عالمكم لبحث ما قام به جنسكم البشري، ذلك بالطبع كان تاريخاً قد مضى الآن أيها الأدميرال العزيز، ولكن هناك المزيد من الكلام، أنت تعرف أننا لم نتدخل في حروبكم العنصرية والبربرية ضد البشرية، والآن علينا أن نتدخل؛ لأنكم تعلمتم أن تتلاعبوا بطاقة ليست من قوى الإنسان أساساً، وهي الطاقة الذرية، لقد استلم رجالنا رسائل مسبقة عن قوى عالمكم وبعد ذلك لم يعيروا انتباههم لها، أما الآن فقد اختاروك أن تكون شاهدا هنا بأنّ عالمنا حي، وأنت تعرف أيها الأدميرال أنّ ثقافتنا وعلمنا سابق لجنسكم البشري بمئات السنين.

لقد وصلتم الآن إلى نقطة اللاعودة، في عام ١٩٤٥ وما بعده حاولنا أن نتصل بجنسكم البشري بيد أن جهودنا قد ووجهت بالعداء إذ أطلقوا الصواريخ على مركباتنا الطائرة، وقد لاحقتها طائراتكم الحربية بكلّ حقد وعداوة، لذلك أقول لك

الآن يا بني هناك عاصفة قوية تتجمع في عالمكم، وهناك حقد أسود لا يتلاشى لعدة سنوات، فسوف لا يكون هناك حلّ في جيوشكم، وسوف لا يكون هناك أمان بتكنولوجيتكم وعلمكم القاصر، وسوف يتفاقم الوضع حتى أنّ كلّ زهرة من زهرات ثقافتكم سوف تداس، وكلّ ما يخص البشرية جمعاء سوف يوضع في مرحلة اضطراب كبيرة، إنّ حربكم الأخيرة مقدمة لمآسٍ كثيرة سيعاني منها الجنس البشري، وإننا ندرك ذلك من هنا بوضوح، إنّ العصور المظلمة ستأتي الآن على جنسكم البشري وستغطي الكرة الأرضية غير أنّ بعض جنسكم سوف ينجو من العاصفة، وسينهض من الدمار ليبدأ البحث عن كنوزكم الأسطورية الضائعة، لكنّها ستكون هنا بمأمن في رعايتنا، وحينما يأتي الوقت سنتقدم إلى الأمام ثانية لنساعدكم على إعادة إحياء ثقافتكم وتطوركم، وربما تكونون قد تعلمتم توافه الحرب والنزاعات، وبعدها يبدأ جنسكم البشري عصراً جديداً».

بعد هذا الحوار انتهت المقابلة وتمت إعادة بيرد إلى طائرته، وكتب في دفتر يومياته يقول:

– لقد شاهدت تلك الأرض المزدهرة وراء القطب حيث يكمن المجهول العظيم

ثم وصل قاعدته لاحقاً، وبدأ يتحدث بما رأى، لكنّ أجهزة الأمن الأميركية السرّية منعته من الحديث في الموضوع، وتحفظت على مذكراته، حتى تم تسريبها لاحقاً، وها هي قد مضت خمسون سنة حتى وصلتنا بعض شذراتها المحيّرة!

والآن تعصف سحب الحيرة في رأسي، فمن هؤلاء الذين في الداخل، أليسوا بشراً مثلنا، وهل دخل الرجل إلى – شامبالا – المحرّمة، وأعيد منها، وهل كلّ تلك الأطباق الطائرة التي سجل البشر مشاهداتهم لها في كلّ أنحاء العالم طوال نصف قرن على الأقل تأتي من هناك، أم ثمّة مدن أخرى ما تزال قابعة بأسرارها في طبقات الأرض، وقد تظهر لنا عجائبها بعد حين؟؟

وقلت سأرسل كلّ ما يخطر على بالي من الأسئلة إلى صديقي الخفيّ صاحب الرسائل المتواصلة لبريدي الإلكتروني، الذي دلّني على هذا العالم الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً، وظننته ضرباً من الخيال، ولم يطل الأمر حتى عاد إليّ بما هو أشدّ هولاً مما عرفت، حتى صرت متردداً بأن أقطع علاقتي معه، هرباً من المعارف الجديدة، التي تسبب على ما يبدو للمرء الإدمان، وتزيده عطشاً على عطش، فلم أعد راغباً بمعرفة أيّ شيء جديد، فكلّ جرعة كانت تشبه المخدرات تحلق بي في

نشوات معتقة، لم أتذوقها من قبل، ثم سرعان ما تهبط بي إلى الأرض فأرتطم بقاعها الصلد من جديد، ولا يمرّ وقت طويل حتى أصاب برغبة جديدة في البحث، كما لو أنّ خلية من الفيروسات المقلقة تهاجم خلايا دماغي، وتحقنه بالمزيد من الأسئلة القلقة، فأصرخ في أعماقي باحثًا عن شيء جديد وأقول:

هل من مزيد...!

تجليات متنزّلة

يبدو أنّ النفق الذي سقطت فيه، يشبه ذلك الذي سقطت فيه - أليس - وقادها إلى بلاد العجائب، مع فارق أنّني لم أجد أرنباً يقودني إلى أرض أستقرّ عليها، ويمكنني من العودة إلى سطح الأرض من جديد، فقد تعددت الدهاليز، بلا أي قرار، وكلما وقفت عند بوابة ورأيت ما خلفها، وجدت من يقول لي إنّ الطريق ليست من هنا بل من هناك، وبالتالي أمضي إلى دهليز آخر وبوابات أخرى لا تنتهي..!

كانت مقدمة الجلسة التي خصصت لمناقشة روايتي - أبناء السماء - قد أخبرتني سلفاً أنّها قرأت الرواية، ولكنّها لا تؤمن بغير العلم المادي الذي تلقته في المدارس والجامعات، وأنها تحترم العقل البشري، غير أنها معجبة بالحكاية، وبالنسبة إليها يبدو السرد مشوقاً لكن الأفكار الواردة في الرواية تحيل إلى - الشعوذة -..!

وتنطع ناقد مغمور ليتحدث عن الواقعية السحرية في روايات كتاب أميركا اللاتينية، وكيف تجري الأمور هناك بغرائبية نتيجة وضع المجتمع نفسه، لكن في بلادنا فإنّ الخرافات هي ما يحكم لا الواقعية السحرية، إذ يبدو الواقع واضحاً جداً وغارقا في السياسة، ولا غرائبية فيه.

وقال لي أحد الحاضرين:

- بدل أن تكتب عن أبناء السماء الذين لا نؤمن بوجودهم في ديننا، اكتب لنا عما يجري في فلسطين والمذابح في بلاد العرب، لماذا الهروب إلى الخيال، وترك مشاكل مجتمعك...!

وهنا يكون واجباً على المرء الصمت، أو التورط في حوار لن يجدي شيئاً..!

وقلت في نفسي وأنا أغادر تلك الجلسة، مبيتاً أن لا أعود إلى مثلها مرة أخرى «إذا كان هذا كلام النخبة من الناس، فاقرأ السلام على العوام...»

حين انتهت الأمسية وغادرت القاعة رأيت شاباً من الذين حضروا النقاش يتبعني إلى المكان الذي أوقفت فيه سيّارتي، وكنت على أهبة الركوب حينما ناداني:

«أستاذ.. ممكن لحظة لو تكرمت»

وبالفعل، وقفت وسلّمت عليه، وأنا أفكر فيم يكون، فأخبرني أنّه قرأ الرواية، وأنه جاء من حلب مع اللاجئين السوريين الذين قدموا لعمان، ثم صمت لوهلة وقال:

أستاذ.. الشيخ نور الدين الحلبي الذي تحدثت عنه يسلم عليك، وهو مستقر حالياً في عمّان، فقد دمّر القصف زاويته هناك، وتشرّد مريدوه..!

ثم على عجلة من أمره، ودون أن يترك لي مجالاً لأستوعب ما يجري، وأن أشرح له الأمر، أعطاني رقم هاتفه، وقال:

يشرفنا أستاذ أن تزورنا، الشيخ سيفرح بوجودك...وهو بانتظارك!

هنا أحسست كما لو أنّ شخصيات روايتي قد عادت إلى الحياة حقاً، فأنا لا أذكر أنّي قابلت مثل هذا الشيخ الذي يتحدث عنه من قبل، وخيّل إليّ أنني أحلم، أو أنّ هوساً قد أصابني، أو لعنةً حلّت على غيري، فأصبحت أتخيل الأحداث وأتقمّصها تماماً وأعيشها، وكانت عمّان حينها قد بدأت باستقبال آلاف الهاربين من جحيم القتال الدموي في سوريا من مدينة إلى أخرى، ومن حيّ إلى آخر، وقد استقر عدد كبير منهم في المخيمات الصحراوية شرق البلاد التي أقيمت

خصّيصا لهم، وآخرون فضلوا العيش بين الناس في المدن والقرى، لا سيّما من كان له أهل أو عنده أقرباء، أو يمتلك قدراً من المال لاستئجار بيت والعيش في هذه المدينة التي تحتضن الجميع بكلّ محبة ضمن فسيفساء بديعة..!

ولم تمض بضعة أيام حتى وجدتني أتصل بذلك الشاب الحلبي وأتفق معه على اللقاء، وعدت للتأكد من جديد بشأن الشيخ نور الدين، فأكد لي الأمر، وقادني إلى بيته في - حي نزال - فرأيت رجلاً كهلاً مكتحل العينين بعمامة خضراء، وقد اجتمع إليه عدد قليل من التلاميذ، فرحب بي لما رآني، وسلم عليّ بحرارة من يعرفني، ولم أكن أتذكر أبدا أنّي رأيت هذا الرجل من قبل، ولا جلست إليه، فقد بدا لي المشهد جديداً عليّ، وأني أراه لأول مرة، وقد أحسّ الرجل بحياديتي تجاهه، فابتسم، وأجلسني، وتابع درسه للمريدين، ثم سمعته يقرأ عليهم ما يسميها - الصلاة العينية - بصوت بديع، وهم يرددون خلفه، وهناك لمحت - يوسف المجذوب - لأول مرّة، وشعرت كما لو أنّ حياتي قبل تلك اللحظة لن تشبه ما بعدها أبداً حين التقت نظراتنا، وتبسّم لي، وكان يردد مع الآخرين كلمات تلك الصلاة فيما أحسست بأنها موجات من الطاقة النورانية موجهة إليّ خصيصاً كي تغسل نفسي المتعبة مما ران

عليها طويلاً من الصدأ وتقلبات الزمان، وتكاد كلماتها تحملني معها إلى حيث لا مكان ولا زمان، وشعرت كما لو أنّ جميع الموجودين هناك قد اختفوا تباعاً، وبقي ذلك الرجل وحده، فيما غامت الأصوات، إلا تلك الكلمات التي كنت أسمعها لأول مرة:

«اللهم صلّ
على سيدنا محمد
عين ذاتك
وتنزّل تجلياتك
ونور مشكاتك
الأقدس.. المقدس
أصل الحقّ.. وفاتق الرتق
وجامع الفرق.. وممدّ الخلق
صلاة تعيا القلوب عن إدارك عظمتها
وبارك عليه ووالديه وآله..»

خطايا منتظرة

جاءتني رسالة طويلة عبر بريدي الإلكتروني من صديقي الذي ما يزال يخاتلني بالاختفاء، ولا يعلن عن شخصيته، ويقول إنه قرأ مذكرات - بيرد - منذ فترة طويلة، وأنه يعتقد أنّ هذا الأدميرال لم تتح له الفرصة لمشاهدة إلا نسبة قليلة مما في الداخل، ولا يظنه قد وصل إلى - شامبالا - المقدسة أصلاً بل بعض المدن التي يسيطر عليها المستحوذون، وإن كانوا قد بدوا له من الأطياب المسالمين، ذلك أن بعض تلك الحضارات في الداخل تسعى إلى استعباد من على السطح، وبالتالي تسعى لنشر فكرة أنها قادمة لإنقاذ البشرية، وهي تبطن عكس ما تظهر، وكتب لي أيضاً أنه يعرف أناساً من زماننا هذا دخلوا هناك، وأنه ربما آن الأوان أن يكشف لي المزيد، وقال إنّ هذه من الأسرار التي كانت مخفية لقرون طويلة، لكن لم يتبق الكثير

من الوقت للكتمان، وستعرف البشرية أسراراً مذهلة عما قريب، سواء استوعبتها أم لا، وأنّ المشكلة تكمن في الناس الذين تعودوا على نمط تعليمي تلقيني يهدف إلى جعلهم أسرى للمعارف المدرسية ووسائل الإعلام، وأنّ «المستحوذين» يتعاملون مع الناس على أساس أنهم قطيع متخلف، أو أطفال لم يبلغوا سنّ الرشد بعد، يوجهونهم كيف شاؤوا.

- حدثتك من قبل عن هؤلاء الأشرار المسيطرين على البشر، وأنّهم على درجة عالية جداً من التقدم العلمي، ولديهم مخازن من العلوم السرّية التي لا تتاح عندهم إلا لخواص الخواص، لكنّ العلوم يا صديقي قد تكون عند البرّ والفاجر، النوراني والظلماني، هي ليست حكراً على جهة دون أخرى، ولكنها محايدة، وطريقة استخدامها تحدد مدى ظلمانية أهلها أو نورانيتهم!

والحكاية قديمة جداً تبدأ من فساد النفس البشرية بسبب العلوم الهائلة التي كانت بين أيديهم، ولوهلة أصابهم الكبر، وطغوا، وباعوا أنفسهم لسيد الظلمانيين بثمن بخس، هل فكرت يومًا بالخطايا الحقيقية للبشر..!

لا بد ستقول لي:

لا تزن.

لا تسرق.

لا تشرب الخمر.

لا تشهد زوراً.

لا تحلف باسم إلهك باطلاً..!

حسناً هذه الأمور نتاج طبيعي لما في داخل النفس البشرية من أمراض، وبالتالي هي أعراض خارجية لخلل أكبر، ولكن ألا تعرف أنّ الخطايا تكمن فيما يلي:

الحقد، الشهوة، الطمع، الكبر، الأنانية، الغضب..!

وكلّها تغذّي العنصر الناري فيهم، وبالتالي فإنّ سيّد هذا العنصر هو المتحكم فيمن يقع تحت طائلته منهم، وهكذا غدا البشر - إلا من رحم ربي وهم قلة - تحت حكمه وهو سيّدهم، وشاركهم في كلّ شيء - الأموال، الأنفس، الثمرات - واحتفظ بالعلوم الخاصة له وللمقربين حتى يحكم السيطرة عليهم!

حدث الأمر منذ جدنا الأول، وحتى جدنا الأخير، فلا يوجد ما يمنع أن يكون السيناريو متكرراً في كلّ مرّة، ولكن هذا الكائن البشري الذي أصبح عبداً لسيد الظلمة تكمن فيه جذوة من الطاقة النورانية لخالقه، وهي محبوسة بين الأخلاط والعناصر والطين والماء المجبول منها، وقلة من ينتبه إلى أهميتها،

ويحاول أن يعثر عليها مثل لؤلؤة خفية في بحر عميق، كما أن المعلمين الكبار من الرسل والأنبياء والقديسين والصالحين كانت وظيفتهم بثّ الأمل في هذا الكائن المهان، الناسي لذاته، والظالم لنفسه، ولكن هيهات، فقد أدمنت البشرية العيش في الوحل، وصدق عليهم سيد الظلمانيين ظنّه!

في كلّ الأحوال وحتى لا يبدو كلامي هذا خطبة عصماء، وتنظيراً جافاً، دعنا نسمّ الأشياء بمسمياتها، فالبشر ليسوا في قمّة ما وصلوا إليه من علوم اليوم، بل مرّوا بمراحل أكثر تطوراً في الماضي، وأنت في بحوثك تعرف ذلك، لكن لا نريد أن نعزو كلّ شيء لكائنات متطورة تعيش على كواكب أخرى، أو لملائكة هابطة من الأعالي، أو لكيانات غير بشرية فالحكاية ليست تماما كما وصلتنا!

كان البشر في أوّل عهدهم يعيشون في الأرض المجوّفة، وفيها مدن عديدة، وأعلاها وأكثرها تطوراً كانت - شامبالا -، حيث بُنيت على هضبة مرتفعة، تجري من تحتها أربعة أنهار، اثنان منهما يصلان إلى سطح الأرض، وفي تلك المدينة من العلوم والحكمة والكنوز ما لا يحصى، وفي ذلك الفردوس الأرضي عاش جدنا الأول، وكان جسده المادي يعمل بطاقته العليا، وبالتالي كان يعيش شباباً دائماً إذ تتجدد خلاياه بشكل

تلقائي، ولا يمرض، ويرى أبعد، ويسمع أكثر، فيما كانت أجساده الأثيرية الأخرى المرتبطة مع البعدين الرابع والخامس تعمل معاً أيضاً في الوقت نفسه مع جسده المادي الملتصق بالبعد الثالث، وفي هذا الفردوس المذهل عاش بنو آدم زمناً طويلاً قبل أن يبدأ عصر الانحطاط، والصراع بينهم، وقتل الأخ لأخيه، وتدخلت بعض الكيانات اللابشرية المتطورة أيضاً، والتي كانت تعيش هناك في تهجين البشر بشحنة من حامضها الأميني الذي أصبح ملازماً للبشر، وهذا ما سبب لهم على الفور إغلاق الربط بين جسدهم المادي والأجساد الأثيرية الأخرى، فهبطوا من رغد النعيم في جنان البعدين الخامس والرابع إلى شظف العيش في البعد الثالث، وأصبحوا مثل آلات خربة، وبالتالي تم طردهم إلى سطح الأرض، وأصبح عليهم ذلك الفردوس محرماً لن يدخلوه إلا إذا ارتقوا بأنفسهم من جديد، وتخلصوا من الجانب الظلماني المزروع فيهم أساساً، ومنذ ذلك اليوم، وهذا الجنس البشري الذي ننتمي إليه أنا وأنت والآخرون من البشر يحنّ إلى العودة إلى جنته الأرضية الأولى، ولكنّ سيد الظلام الذي أخبرتك عنه، ظلت مهمته الأساسية الاستحواذ على بني البشر وجعلهم عبيداً له، وأن لا يسمح لهم بالعودة إلى هناك مجدداً واستعادة قدراتهم العليا،

وظلت – شامبالا – مدينة خفيّة لا يعرفها أحد، فيما امتلأت طبقات الأرض الأخرى بكائنات ومسوخ وكيانات بعضها ولد هناك، وبعضها هبط من كواكب أخرى واستعمر هذه الطبقات، وتلك حكاية قد أحكيها لك مرة أخرى إن اتسع المقام، ولم أرحل عن هذا العالم!

حمّى جارفة

التقيت الدكتور جمال مجدداً، وكان قد عاد من غربته البريطانية مؤقتاً كما أخبرني لأمرين؛ الأول مرض والده وإصابته بجلطة دماغية وخشيته من فقدانه، والثاني مهمة تبدو سرية وتحتاج إلى شرح طويل كما همس لي، ولكنّ الرجل كان يثق بي، ولا يخفي عنّي شيئاً، وقد باح لي بعد أيام أنّ حمّى البحث عن الدفائن قد هاجمته في نقطة ضعفه كما قال، فقد شاهد فيديو تمّ نشره على اليوتيوب لعالم آثار فرنسي من أصول جزائرية يدعى - بغداد جيلالي -، وهو يتحدث في مؤتمر صحفي بمعهد العالم العربي في باريس أمام الإعلاميين والمتخصصين عن العثور على كنز الإسكندر المقدوني الأكبر في الأردن، وقد انتشر الخبر في الصحف والمواقع الإلكترونية بشكل غير مسبوق، وتشكلت جماعات ضاغطة في البرلمان

وجهات إعلامية مطالبة الحكومة بكشف الحقيقة للشعب!

كان الرجل يشرح للحاضرين وبالصور الموثقة ما في داخل هذا المكان من تماثيل ذهبية على شكل غزلان وحيوانات أخرى بالحجم الكامل، وحجارة كريمة نادرة، ومخطوطات لم ير مثلها أحدٌ من قبل، وأدوات زينة مطعّمة بالجواهر النفيسة، وصناديق لا يعلم إلا الله ما انطوت عليه من الكنوز، وقال - جيلالي - إن الدلائل تشير إلى أن كنوز بابل قد نقلها الاسكندر معه ودفنها في هذا المكان، وأن ما يحتويه ملك لتراث البشرية ولا يقدر بثمن!

ومع تواصل الاحتجاجات، وانتقال الحمّى إلى بعض أهالي قرى جرش الجبلية المطلة على المدينة الأثرية التاريخية، والذين باتوا يعتقدون أنّ الحكومة تتكتم على الكنز كي تسلبه منهم؛ إذ إن منطقتهم مليئة بالإشارات والكهوف والمواقع الأثرية التي تدور حولها الحكايات التي لا تنتهي، والتي تحولت مع مرور الزمان والتكرار إلى ما يشبه الأساطير، فقد تم الاتصال بالدكتور جمال من جهة متنفذة عليا في الدولة من أجل أن يكتشف الحكاية وما أصلها وأهميتها، وما مدى الواقع فيها من الخيال، وقد اقترح عليهم أولاً أن تصدر الدولة بياناً صحفياً تنفي فيه وجود مثل هذا الكنز، وأنه محض خيال وتضليل،

وأن تستعين بشهادات لكبار المتخصصين في الآثار، واقترح عليهم بعض الأسماء البارزة إضافة إلى اسمه، وهذا ما جرى، حيث خمدت ساحة الاحتجاجات، وتراجعت المطالبات أمام آراء الأكاديميين والمتخصصين، لكنّ صديقنا كان يعمل من جهة أخرى وفي الخفاء التام وتحت إشراف الدولة في البحث الحقيقي عن هذا الكنز!

أخبرني أن الدولة عرّفته على مجموعة صغيرة من المهتمين بالآثار القديمة والروحانيين ومحترفي البحث عن الدفائن وبعض الباحثين من أجل فك لغز - الإسكندر الأكبر - والذي كان يطلق عليه - الإسكندر كود - وكان من ضمن هذه المجموعة السرّية إثنان من الأجانب لهما لكنة غريبة تشبه لكنة الإسرائيلين لكنّهما يتحدثان الإنجليزية، ورجل بلهجة مغاربية، إضافة إلى أردنيين إثنين كان يشك بأنهما من رجال الأمن المتخفيين على شكل باحثين عن الآثار، وكان هدفهم إيجاد المكان الذي فيه الكنز، وكان عليَ أن أسأله بين الحين والآخر:

- هل عثرتم عليه يا رجل؟ أرجوك طمئن قلبي المتعب!

- طبعا... رأيته بنفسي

- حسناً في أي مكان من الأردن!

- هل أنت مجنون؟ لا أستطيع أن أبوح بشيء، وحقاً لا

أعرف لأننا حين اقتربنا من المكان غُطِّيت عيوننا بعصبة قماش سوداء حتى وصلنا!

- هل دخلت المغارة نفسها!

- ليست مغارة يا عزيزي بل مدينة صغيرة تقبع تحت الأرض فيها قصور وأعمدة وغرف وكنوز لا تحصى!

- هل دخلت المدينة الصغيرة يا عزيزي؟

- في الحقيقة أطللت عليها من بعيد، ورأيت فيديوهات لها!

- أَنت تصف ما في الفيديوهات إذن؟

- لا رأيتها من بوابتها الأولى وشاهدت هناك هذه العجائب، ولكني لم أدخلها تماماً.. هي إطلالة فقط.

- حسناً هل دخلها غيرك؟

- نعم دخلوا وصوروا وشاهدوا الكنوز الهائلة!

- وهل أحضروا شيئاً من هناك؟ وهل لديك إثباتات من تلك القطع؟

- اسمعني يا رجل.....لا أحد يستطيع أن ينتزع شيئاً من داخل المغارة، ثمة حماية لا ترى فالمغارة مرصودة بطريقة صعبة جداً!

- أووووووووه عدنا إلى الأسطوانة السابقة، هل تريد أن

تقنعني أن كلّ هذه الدولة وقواتها والخبراء الذين معكم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، أمر لا يصدق، ولا يقبله عقل!

كانت الحوارات بيننا تنتهي بهذه الطريقة غالباً، ويحتار المرء كيف يمكن أن يصدق هذه الحكايات المدعمة بالفيديوهات والصور أيضاً، والتي يقصونها عليك مرفقة بالأيمان المغلظة عن صحة ما يقولونه، وبالتالي أمامك خياران لا ثالث لهما؛ إما أن تسلم تسليماً كاملاً بصحّة ما يقولونه، وتصاب بالهوس نفسه، أو أن ترفض ذلك وتغلق الباب أمام مثل هذه الاحتمالات، وذلك خيار صعب أيضاً في ظل وجود أدلة تبدو دامغة، ودولة تبحث بنفسها وبشكل سرّي وحتى علني عن هذه الكنوز!

لكنّ الدكتور جمال شعر بأنني في حيرة من أمري وأميل إلى إنكار الحكاية من أساسها، وقال لي:

- طيب إذا كنت غير مصدق لموضوع - الإسكندر كود - فما بالك لو عرفت حكايتنا في - موسى كود -!

- قلت له: لا أفهم ما تقول، من موسى هذا، وما هي الشيفرة التي عثرتهم عليها؟

ضحك طويلا وقال:

- يا رجل موسى هو نبي الله المرسل إلى بني إسرائيل، والموضوع يتعلق بعثورنا على.....!

ثم سكت برهة شعرت بها دهراً، وقال:

- والله إنّي محتار كيف أقول لك ذلك، يبدو أنني سأخبر العالم بأمر ما اكتشفناه عبر مؤتمر صحفي أيضاً...ذلك أكثر تأثيراً!

- يا ساتر هل الموضوع بمثل هذه الأهمية؟

- يا رجل - موسى كود - يعني أننا أخيراً عثرنا على قبر النبي موسى..... وأين....!!

- أين يا رجل دمرت أعصابي التالفة أساساً من طريقتك في الكلام والتي - تفري المرارة -..!

- في الأردن يا عزيزي!

- أنت تهذي نحن بدون مثل هذا المكان الخطير لا نسلم من عداوة الإسرائيليين، ورغبتهم المبطنة والظاهرة في الانقضاض علينا!

- كنت أتوقع ردة فعلك، فأنت نائم مثل الآخرين أو مخدر... عموماً انس الموضوع نهائياً..... وكأنّي لم أخبرك!

- هل شربت شيئاً ليلة أمس وما يزال أثره في رأسك!

- هههههههه نعم شربت - بابونج - أنا نفسي لا أكاد أصدق فكيف أتوقع أنك ستصدق الأمر، انس الموضوع أفضل، ولا تنس أيضاً أن تشرب حليب نيدو المجفف سريع الذوبان قبل النوم لتنضم إلى القطيع..... هههههه !

خلوات مشرقة

أحسست كما لو أنني أعرفه من قبل، وخيّل إليّ كما لو أنّ للإنسان نظيراً في هذا الكون قد يلتقيه ذات يوم، وتذكرت أنّني قرأت ذات مرة أنّ روح الإنسان الواحد قد تستطيع أن تزود جسدين أو أكثر بطاقة الحياة نفسها، ولهذا قد يمضي الإنسان حياته بحثاً عن نظيره!

ذلك هو - يوسف - الذي يدعونه بالمجذوب ويعجبه هذا الأمر، ويقول لئن جذبت جذبة خفيفة مع بقاء هيكلي خير لي من الفناء والمحق في الحضرة والغياب عن الأعيان، وأحياناً يناديه بعض خلانه ومحبيه - سيدي يوسف - ولكنّي أحببت أن أناديه - عزيزي يوسف -، فأعجبه الأمر، ورأى فيّ ما رأيت فيه، وكأننا افترقنا بين عالمين، ثم التقينا من جديد، فقد انغمست طيلة سنواتي الماضية بالحياة وتصاريفها حتى أخذتني

عن جوهري، وانشغل يوسف كما يبدو بجوهره حتى أنساه تفاصيل الحياة اليومية ومتطلباتها الطاحنة.

كان في مثل عمري تقريباً غير أنّه كان يبدو أكبر بعشر سنوات على الأقل، فقد ترك لحيته تنمو دون تشذيب، وكان له شعر طويل أحياناً يسدله، وأحيانًا يخفيه خلف طاقية ملونة، ومرات يلبس الشماغ الأحمر، ومرّة عمامة خضراء وثوباً طويلاً، فلم يكن الرجل ذا ملامح ثابته في لباسه، وبدا لي أنه لا يصلح على الإطلاق للمواضعات الاجتماعية التي توافق عليها الناس، فردود فعله أحياناً تبدو مفاجئة، وأحياناً يسرح في عالمه الخاص، ويصمت طويلاً كما لو أنّه يتحدث بخواطر القلب لا اللسان مع أحد غيري، غير أنّه كان حريصاً على أمرين: نظافة الجسد والثياب، والعطر الذي يفوح منه، كان خليطًا من دهن العود والورد كما كنت أتنشقه، وأحياناً يبدو لي مسكاً خالصاً.

هل كانت زيارتي للشيخ نورالدين مرتبة فقط من أجل مقابلة صديقي المجذوب، وهل زرت حقاً زاوية هذا الشيخ في - حيّ نزال - بعمان، أم أنّ الأمر لم يحصل قط، حتى أنني سألت يوسف مرة بعد أشهر من صحبته، أن نزور الشيخ نورالدين حيث التقينا أول مرة فتبسم ضاحكاً ولم يجبني، ثم

قال لي بما يشبه المزاح المبطّن: إن عرفت عنوانه أخبرني نزره معاً.....!

ومرة قال لي: اعذرني لا أذكر ذلك الشيخ، ومن قال لك إننا التقينا هناك أول مرة!

وخُيِّل إليّ كأنّ ما حصل في عالم التوهم لا الحقيقة.. وبدأت أشك بأن ذاكرتي قد خرفت، أو خلطت الأمور عندي ببعضها من كثرة القراءات، والتأمل، وما يجري من الأحداث الغريبة معي من دون الناس، وأحياناً أقول لنفسي إن كل ذلك تهيؤات لا تجري أساساً في الواقع بل في عالمي الداخلي!

ومع ذلك ذهبت بسيارتي إلى ذلك الحيّ في أحد الأيام كي أتأكد من سلامة عقلي، وسألت الأهالي هناك عن الشيخ نورالدين الحلبي فما وجدت له أثراً، ولم يعرفه أحد، بل أشفق عليّ بعض سكان الحي من كثرة أسئلتي، وقادوني إلى زاوية شيخ ينادونه - سيدي حازم - وقالوا لي: لعله الشيخ الذي تقصد، وأنك تخيلته باسم آخر، وحين دخلت زاوية هذا الشيخ ونظرت إليه من بعيد كان منشغلاً بمريديه، وفي كلّ الأحوال لم يكن هو الشيخ الحلبي الذي خيل إلي أنّي رأيته من قبل، وقلت في نفسي إنّه لا علاقة لي بالطرق ولا بالمريدين ولا بالشيوخ، فماذا أقول للرجل إن قابلته، هل تعرف الشيخ

نورالدين..؟ فيظنني من المجانين، ولهذا آثرت الانسحاب من المكان قبل أن يلمحني ذلك الشيخ الذي كانت زاويته تعج بالزائرين، مرسلاً لي ابتسامة لم أستطع إدراك مغزاها أبداً، لكنّ صديقي يوسف المجذوب لم يكن توهماً بل رجلاً من لحم ودم، وقد التقينا مراراً وتناقشنا طويلاً، وزرته في بيته النائي غير بعيد عن مقام النبي شعيب الذي قضى نبيّ آخر هو موسى برفقته هناك عشر سنوات، ورعى له الغنم مهراً للزواج من ابنته، وقد اختار المجذوب مزرعة صغيرة في أعلى الجبل، يعيش فيها مع أهله عيشة الكفاف، وكان يقول لي:

مكابدة العزلة أهون عليّ من مداراة الخلان!

وأنّه جاء إلى هذه الدنيا ضيفاً لن يطيل البقاء فيها، وحدثني عن انغماسه في عالم التصوف قدراً وليس اختياراً، فقد كان والده متصوفاً، وكان يدرّبه على الصيام والمجاهدات، والخلوات، والسهر، وطول التفكر!

وقال لي مرة إنّه حينما بلغ العاشرة من عمره، توفي والده، فبقي سائحاً حزيناً عليه في السهول والجبال والقفار، حتى وصل صحراء - المفرق - شرق البلاد فتاه فيها أياماً، وهناك تعرف إلى شيخ المجاذيب إبراهيم، الذي تعود أصوله إلى الحجاز، والذي علّمه الكثير، وأصبح يرعاه مثل والده، وبقي في

رفقته حتى توفي بعد سنوات، وقال لي إنّ لهذا الشيخ من الكرامات ما لا يوصف، وأنه كان يعرف - سرّ الخطوة - وتطوى له الأرض، ولما استفسرت من صديقي يوسف، عن معنى سرّ الخطوة أخبرني أن بعض الأولياء أعطاهم الله تعالى كرامة الانتقال من مكان إلى آخر بنفس اللحظة، فيختصر الزمن ويتجاوز المسافات بسرعة هائلة، ويسّمى في مصطلحات أهل القوم - طي الأرض -.

بدا لي الأمر شبيهاً بانتقال المادة من مكان إلى آخر دون حامل، وهو ممكن نظرياً في حال تحولت المادة إلى طاقة ثم انتقلت بأضعاف سرعة الضوء ثم تجمعت في مكان آخر في الوقت نفسه.

وقال لي أيضا إنّه بإمكان بعض الأولياء الذهاب إلى الكعبة أو الصلاة في المسجد النبوي ثم العودة في اليوم نفسه، وبعضهم قد يتواجد في عدة أمكنة بالوقت نفسه أيضاً، وهذا مجرّب وله حكايات كثيرة أشبه بالخيال، وفعلاً أحسست بأنّ ما يقوله ينتمي إلى الخيال العلمي قادماً من الأفلام التي شاهدتها، ولكنّي قرأت ذات مرة أنه يتفق مع آخر ما توصلت إليه نظريات فيزياء الكم - الكوانتم - في وجود أصغر ما في الذرة في مكانين في الوقت نفسه، وهذا ما جعل العلماء

يضربون رؤوسهم من الحيرة!

وقلت ليوسف ذات يوم: هل تؤمن بأنّ هناك طبقات للأرض، وأنها مجوّفة من الداخل؟

هل سمعت بشيء من هذا من شيخك أو خبرته بنفسك؟

ورأيت كما لو أن سؤالي قد صدمه، فقد ظلّ صامتاً لفترة يحاول أن يفتح فمه بالكلام ثم يصمت، وكأنّ العيّ قد ربط على لسانه، ثم انطلق بعدها يحكي بلا توقف حتى وددت لو أنّي لم أسأله عن هذا الأمر أبداً..!

ممالك خفيّة

مرّت فترة طويلة على آخر رسالة من - الحسيني - عبر بريدي الإلكتروني، وقد جرت أشياء كثيرة في تلك الأثناء، فقد أمعنت جيوش الظلام الظاهرة منها والخفية في تدمير دول عربية كثيرة تمهيداً لأمر يخططون له، وتكالبت الأمم على المنطقة في ترتيب جديد يسعى لتقسيمها إلى دويلات وطوائف، وتفشت أمراض العنصرية والإقليمية والطائفية والجهوية والمذهبية، وانتشر القتل والنهب والتعصب، وغاب التسامح، وتراجعت الأخلاق، وأصبح باطن الأرض خير من ظهرها، وغدا ذبح الرجال والنساء والأطفال كما تذبح الكباش أمراً يومياً ومشهداً مألوفاً، ولا يدري القاتل لِمَ قُتِل، ولا المقتول من قتله وَلِمَ، وجاء عصر الفتن، وانهارت القيم، وغدا الناس عبيد الدرهم والدينار، وغابت البركة من الأرض، وشاعت الفوضى..!

وقد جاءني الإيميل التالي من صديقي المتخفي خلف البريد الإلكتروني يقول فيه:

حدثتك عن المستحوذين الظلاميين الذين كانوا يعيشون بيننا منذ آلاف السنين سواءً في عالم الظاهر أو الباطن، على سطح الأرض أم في طبقاتها السفلية وجوفها الواسع، من البشر أم من الكيانات غير البشرية، ولهؤلاء مملكة يقال بأن مركزها في قاع - مثلث برمودا - تحت الماء حيث الأهرامات الكريستالية الموجودة هناك، والقاعدة التي تعجّ بالأطباق الطائرة واختراعات علمية تسبق علوم البشر الحالية ربما بمئات السنوات، وهذه المملكة الخفية الظلمانية تُحكم من قبل أربعة أشخاص من البشر، وعليهم خامس وهو ما يسمّى -ملك الأرض-، لم يره أحد من هؤلاء الأربعة عياناً، ولا يظهر عليهم مباشرة، فهو يحكمهم بصوته ومن وراء حجاب، وهو التجلي الجسدي لسيّد الظلمانيين، وهؤلاء نوابه على حكومة الأرض، يخططون لكلّ ما يساهم في جعل البشر عبيداً لهم، وأسهل طريقة هي التحكم بتعيين رؤساء الدول الكبرى، ودعم الشخصيات المتنفذة في الاقتصاد والصحة وحتى الفن والرياضة والإعلام والسياسة، وإنشاء الهياكل الدولية المتحكمة بالتعليم والصحة والأمن والغذاء والتجارة، والتهيئة لإقامة النظام العالمي الجديد

أو مملكة العالم الموحّدة، حيث يتسيّدون على الأرض تماماً بعد تدمير كلّ مقاومة، وإثباط كلّ عزيمة!

هؤلاء يا صديقي لا أخلاق تحكمهم، ولا مشاعر بشرية تؤثر فيهم، ماضون لتنفيذ خططهم الجهنّمية في إشعال الحروب وفي الوقت نفسه يتدخلون من أجل إقامة السلام ظاهرياً، وهم من يقف وراء نشر فيروسات الأمراض التي لم يعرفها البشر من قبل والتي ينتجونها في مختبراتهم السرية، ثم يقومون أيضاً بتوزيع اللقاحات والأدوية على الناس من جهة أخرى حتى تكون السيطرة بأيديهم في كلّ شيء، وهم من يبيعون السلاح لكلّ الأطراف حتى تدمر الشعوب نفسها بنفسها، وهم من يسعى لمراقبة الناس في كلّ تفاصيلهم، ونشر الإباحية، وإغراق البشر في حمأة الجنس حيث الجسد يبدو نهاية المطاف لكلّ اللذات، بل إنّ خططهم الكارثية تسعى لزرع – رقاقة إلكترونية عصبية – في أجساد البشر فيها كل المعلومات عنهم، وهي في الوقت نفسه يمكن أن تحدد عبر تقنية الأقمار الصناعية مكان أي شخص في العالم، لا بل يسعون ربما إلى التأثير على من يشاؤون في مشاعرهم، فينشرون الإحباط والكآبة، وأحياناً العنف حتى يغدو البشر قطيعاً من الأجساد يحركونها مثل أي لعبة كمبيوتر وقتما يشاؤون!

لا تنس أن بعض الرقاقات اليوم أصبحت أصغر من حبة القمح، وقد توضع في المشروبات الغازية التي أدمن عليها البشر، أو في الأطعمة السريعة الكارثية التي لا قيمة غذائية لها ولا فائدة غير تدمير الناس أو حتى فيما يبدو مفيدا لهم ولا غنى عنه مثل الحليب..!

أمّا خططهم السرية الكبرى فهي العمل على تخفيض عدد سكان الأرض إلى مليار نسمة فقط لتحلو لهم الحياة كيفما يشاؤون، حيث تتكفل بهم الفياضانات الكبرى، والهزّات الأرضية، والعواصف المدمّرة، وهذه كلها أصبحت تقنياتها بين أيديهم اليوم أيضاً، فقد وصلوا إلى تطور علمي مذهل في التحكم بالطبيعة، والظروف الجوية، ألم تلاحظ تغيرات الطقس الحادة: ثلوج في الصحراء، وحرّ قاتل في بلاد ثلجية، وتسونامي في بحار هادئة، وعواصف رملية في بلاد لم تعرف مثلها من قبل، وغرائب لا تنتهي!

ثمة مشاريع سرية وضخمة مثل - برنامج الشفق النشط عالي التردد، هارب - الذي يتحكم بالمناخ، وظاهره علمي وباطنه سلاح فتاك، ومشروع - الشعاع الأزرق - الذي يعتمد على إنتاج الصور المفرغة وبثها بالهواء أو ما يسمى -الهولوغرام- حيث يمكن تشكيل شخصيات افتراضية يراها الناس على

صفحة السماء فيظنونها من الملائكة أو الأنبياء.

إنه تلاعب مبرمج بالعقول والأبصار لتكتمل عبودية الإنسان!

وهم يسعون إلى تحدي الخالق بعلومهم القاصرة، ولكنّ نهايتهم ستكون كارثية!

ماذا أقول لك أيضاً، وعن أي شيء أخبرك، فالمؤامرة كبيرة، والناس نيام!

ألا تشاهد الأفلام التي تنتجها هوليود مدينتهم الأثيرة عن دمار العالم، وخروج الكائنات البشعة للسيطرة على البشر، والحيوانات التي تتكلم، والروبوتات المؤنسنة، والمتحولين، وهاري بوتر، والهوبيت وسبايدر مان، وآلاف النماذج!

قلت لك أن هؤلاء الشياطين لا عواطف لديهم فلا يذهبن بك الظن أنّي أَتحدَّثُ هنا عن دول مثل أميركا، كلا فهؤلاء لا فرق بالنسبة إليهم بين أميركا أو الصومال، فحربهم مع البشر في كلّ مكان، رغم أنهم يوظّفون هذه الدولة الكبرى لأغراضهم بشكل يبدو جلياً لكن كلّ البشر ضحايا محتملون لهم، بل إنّ من مخططاتهم تدمير أميركا نفسها وشطرها إلى نصفين!

إنها الحرب يا صديقي إذن، والبشر فيها عبيد في قفص كبير، وآن الأوان أن يستيقظوا رغم كل تدابير هؤلاء الخارقة،

فثمة دائماً أمل بغد أجمل، وبحرية خارج هذا السجن!

سجن أكاذيبهم في الإعلام، ومراقبتهم لنا في كلّ صغيرة وكبيرة، وكذبهم في العلوم والطب والسياسة والتاريخ والجغرافيا وحتى في الأطعمة والأشربة والأدوية التي يضعون فيها ما يجعلنا أسرى لهم دون أن ننتبه!

يوماً ما يا صديقي - ويبدو أنه بات قريباً - سينقلب السحر على الساحر، ويتحرر البشر، وسيعرفون الأسرار التي كانت مخفية عنهم طوال قرون عديدة، ستكون لهم - الطاقة الحرة - المستخرجة من الهواء والماء منبعاً لا ينضب، ومجّانية بدون أي جهد، لا طاقة البترول الذي يستنزف قدرات أمّنا الأرض!

وستتفجر المعارف البشرية، وتعم قيم الأخلاق، حتى يغدو العالم أكثر بهاء!

وعندها لا بد أنّ إخوتنا في تلك المدن المخفية، العالية والبهية، سيحتضنوننا بكلّ الحب!

قد يكون هذا آخر ما يصلك مني، فقد قلت ما ينبغي لي أن أقوله لك، وأخبرتك ما هو مسموح لي أن أخبرك، وأنت بعد ذلك تستطيع مواصلة الطريق، وأعرف أنك الآن بت تتشوق لرؤية - شامبالا - بأيّ ثمن، وإلا ستمضي ما تبقى من عمرك

قلقاً تترقب، ووجلاً أن ترحل عن هذا العالم قبل الولوج إلى أعماقها القصية، ورؤية كنوزها البهية!

فاعلم بأنها في قلبك، إن ارتقيت به تنل القرب منها، وهي جنّة الدنيا فيها ما لا يخطر على بال الحالمين، فكيف بمن يرى ويقترب ويذوق، ويعيش فيها يوماً أو بعض يوم مثل دهر مما تعدون، وإني أودّ أن أبوح لك بسر، لا أضيف عليه شيئاً مما عرفت، لقد كنت هناك يوماً، واكتحلت عيناي برؤية تلك المدينة العظيمة التي تشرق عليها شمس الكوكب الدرّي من الحجارة الكريمة التي لا ينضب نورها أبداً، وتجري من تحتها الأنهار، وجرى الأمر كأنّني في منام..!

هناك حيث تعيش أمم كثيرة من البشر المتقدمين روحياً وعلمياً، لقد رأيت أجدادنا العظام هناك، وأحفاد الأمم الناجية التي تعيش آلاف السنوات، ولكن من يصدق الحكاية إذن، لهذا سأكتفي لك بما قلت..... ولا أزيد!

نشوات عارمة

كنت أشعر وهو يحدثني أنّ كلّ ما يقوله حقيقة لا تشوبها شائبة، فصديقي الدكتور جمال كان يبدو متحمساً في كلّ موضوعاته، ومستعداً أن يحلف لك على المصحف والتواراة والإنجيل إن لزم الأمر أنّ حكايته حقيقية مائة بالمائة، ولا يملك المرء ممن يلتقيه أوّل مرة، وربما حتى المرّة العاشرة إلا أن يصدّق الأمر تماماً، ولا سيّما حين يعرف أنّ الرجل أكاديمي رزين، ومتخصص في الآثار من جامعات بريطانيا، وهو آخر - كرت - كان يستخدمه لإقناع قبيله، ولوجه الحقيقة لم أشكّ يوماً في ما كان يقول لي، إنما حينما أخلو إلى نفسي أو أسمع آراء أخرى، أقول بأن هذا الرجل يحتاج إلى صدمة حقيقية ليستيقظ من الغشاوة التي على عينيه، وتنفضّ عنه الأحلام التي تسكن أعماقه وتشاركه صحوه أيضاً!

لا أستطيع أن أدعي بأنه كان كاذباً فتلك فرية عظيمة بحقه، خصوصاً وقد جربته في مشاغل حياتية كثيرة، ولكن الوصف الدقيق لحالته أنه مشوش، ويخلط الأمور ببعضها، فبعض ما يؤكد أنه شاهده ولمسه قد يكون قرأه في بحث أو سمع عنه من شخص آخر، وبعض ما يحلف أنه متوفر عنده، قد يكون رأى شيئاً منه عند صديق له، وهكذا ثمة الكثير من الخلط الذي يجعل المرء لا يعرف أيّ حكاية لها مصداقية عنده، وأيها من نسج خياله..!

غير أن قضية - موسى كود - أصبحت شغله الشاغل، وأجمع أمره عليها، وتواترت حكايته حولها مع تبديلات بسيطة، فمرة يقول إن جدعون ضابط إسرائيلي كبير كان يحفر معهم في الموقع المدفون به نبي الله موسى، ومرة يقول بأنه ألماني، وأحياناً كانت هناك باحثة روحانية من جامعة تل أبيب، وفي روايات أخرى تكون نفسها أميركية، غير أنّ حكاية البحث نفسها، وتفاصيله كانت حاضرة، إذ إني سألته مرة:

- طيب لو افترضنا أنك تقول الحقيقة فكيف تعمل مع إسرائيليين في التنقيب عن الآثار في بلادك!

والجواب لديه حاضر دائمًا إذ يقنعك أن ثمة علاقات رسمية بين البلدين واتفاقيات تسمح بتبادل الخبراء، وأنه في

النهاية يعمل تحت مظلة الدولة، ولا يخونها أبداً..!

وحين يصل الحوار إلى السؤال الحاسم مثل:

- حسناً متى يتم الإعلان عن هذا الاكتشاف الخطير للعالم؟

يتنهد طويلاً ويأخذ بالتدخين، وقد لاحظت أنه أصبح شبه مدمن على ذلك منذ رجوعه الأخير إلى الأردن، وانشغاله بشيفرة الإسكندر وموسى، وربما شيفرة دافنشي أيضاً فقد رأيت بين يديه أكثر من مرة كتاب - دان براون - الشهير هذا وكأنه يحلم بتأليف كتاب على هذا النحو عن اكتشافاته الخطيرة، ولكنه نسي في غمرة التدخين المتواصل نصائحه الثمينة التي كان يسديها إليّ بضرورة التنفس بعمق من أقصى منطقة في القفص الصدري مع ضرورة تحريك الحجاب الحاجز للاستفادة من الرئتين، إذ كان موضوع التدخين نفسه من الموبقات الكبرى بالنسبة إليه.

قال الدكتور جمال:

- القضية معقدة أكثر مما تظن، والقبر نفسه تم إغلاقه، ومراقبته من بعيد حتى لا يستطيع أحد الاقتراب منه فما بالك بفتحه، وهذا أمر متفق عليه بين أطراف دولية عديدة كما يبدو، ومسألة أن أخبر أحدًا بالأمر ستعود عليّ بالكوارث وقد أدفع

الثمن غالياً، وأنا بين أمرين أحلاهما مرّ، إما البقاء هنا على مضض وإغلاق فمي إلى الأبد، أو الهجرة إلى بريطانيا وأيضًا إغلاق فمي هناك فلا إثباتات يمكن التعويل عليها، وبالتالي سأتعرض لفضيحة أكاديمية إن أخبرت أحداً، فإذا كنت أنت صديقي المقرب تشك فيما أقول - ومعك حق في ذلك - فما بالك بالآخرين!

ثم سكت طويلاً وكأنما تذكر شيئاً فجأة وقال:

- صحيح عزيزي.. هل تتذكر الأب حنا؟

وحينما بدا على وجهي الاستغراب، لأني حقاً لا أعرف رجلاً بهذا الاسم من قبل ، قال محاولاً إنعاش ذاكرتي الخامدة:

- يا رجل..الأب حنّا الذي من الناصرة، ويحقق المعجزات الروحية.. أنت نفسك ذكرته في روايتك - أبناء السماء -!

- نعم.. والله نسيته لأني لم أقرأ الرواية منذ نشرتها قبل خمس سنوات تقريباً... ما به.!

- نسيت أن أخبرك بأنه شاركنا في الدخول إلى تلك المغارة مرات عديدة!

هنا كان عليّ أن أصمت طويلاً بطريقته نفسها، وشعرت بأن لعنة الرواية قد طالت كل قريب وبعيد، ووصلت إلى

الدكتور جمال نفسه، وحرت ماذا يمكن أن أفعل بهذا الوباء الطام، ولم أجد من وسيلة غير أن أطلب منه سيجارة فاستغرب إذ لا يعرفني مدخناً من قبل بل منتقدًا له في ذلك دائمًا، وشرعت بالتدخين حيث هبط عليّ حينها ذلك السؤال المؤجل:

- عزيزي.. هل تعرف الحانة التي في وسط البلد ويؤمها العمال والمثقفون والطفارى!

- نعم نعم أكيد.. أنت ذكرتها أيضاً في روايتك!

- حسنا.. لا أدري، ولا أتذكر أي شيء الآن، ولا يهمني الأمر، لكني أريد الذهاب إلى هناك يا رجل بأي ثمن!

- لا بأس.. اهدأ قليلاً... غريب أمرك منذ متى أصبحت تشرب.. وتدخن أيضاً..

عموماً سأوصلك إلى باب الحانة، ولكنّي لن أدخل لقد تركت شرب الخمر منذ فترة وتبت.. اعذرني!

ثم صمت لوهلة وقال:

- عجيب.لقد بدأت تصدق ما كتبت بيدك..بت أخشى عليك يا صديقي.

وبعدها كان علينا أن نغني معاً في الطريق إلى قاع المدينة - على دلعونا - مرة أخرى، وبأصوات مشروخة تقنع أي سامع لها بأننا في حالة من النشوة العارمة أو ربما الكآبة المرضية التي

من الممكن أن تسمح لأي شرطي سير أن يعتقلنا بدون أي تردد؛ ولا يحتاج حتى لفحص نسبة الكحول التي راحت تعربد في دمائنا بلا هوادة لاحقاً ، إذ وجدت الدكتور قد تخلى عن رزانته والتحق بي مثل أي مسرنم وطلق التوبة بلا أدنى ندم..!

وكانت تلك الليلة آخر عهدي به وبحكاياته التي تحتاج إلى مؤلف بارع لعمل النسخة المنقحة والمزيدة من - ألف ليلة وليلة -..!

وأحياناً يأتيني هاجس محير بأنّ الرجل كان صادقاً في كلّ ما أخبرني به، وأن الواقع فعلاً أشد غرابة من كلّ خيال، وربما الزمن وحده سيحوّل هذه الحكايات إلى حقائق، أو يذهب بها إلى عالم النسيان!

زواحف بشرية

وقال لي يوسف المجذوب ذات ليلة كلاماً كثيراً حفظت بعضه وغاب عنّي أكثره، وكان يبدو لي هادئاً ورزيناً ينطق بالحكمة، وأحياناً متهتكاً ومازحاً ومتخبطاً وغائباً عن المنطق:

- اعلم أنّ الإنسان مخلوق من هواء وماء وتراب ونار، فإن صفت نفسه الهوائية عُلّم منطق الطير، وأسلمت له الريح قيادها فلا يسقط عنها، وفهم العواصف وأسرارها ونجا منها، وإن صفت نفسه المائية كلّم الأسماك وحيوانات البحر، ورفعته المياه فوقها فلا يغرق فيها، وأسلمت له الأمواج أمرها فينكشف له سرّها، فإن صفت نفسه الترابية كلّم الزواحف ودواب الأرض، وخاطبته الجبال، وعرف أسرار الزلازل وكيف لا يبلغه ضرّها، فإن صفت نفسه النارية كلم الكائنات المخلوقة من النار وسلم

من شرها، وكانت النيران عليه برداً وسلاماً فلا يحترق فيها، وإنّ هذا الإنسان المركّب من المعادن والمياه والهواء والنار إن توازنت أخلاطه، وصفت أخلاقه، زاد مدده من طاقة روحه النورانية حسب وسعه، وشفّت نفسه، وارتقت إلى الأعالي، فالروح لا تسكن الجسد كما يظن الناس بل موطنها في الملأ النوراني الأعلى، أو الحضرة العلوية وعالم الكمال لا يعتورها تبدل ولا تلف ولا تفنى أبداً، وهي تشبك طاقتها مع النفس البشرية الملتصقة بالجسد المادي فتزوده بالحياة قبل وفاتها وانتقالها إلى ربّها راضية مرضية!

وقال لي:

- يا رجل كيف عرفت بأمر هذه الجنّة الأرضية التي كان فيها جدّنا آدم، لقد كانت محفوظة في صناديق الأسرار التي ندفنها تحت الأرض، ولا يعرفها إلا خاصّة الخاصّة، ولا بدّ أنك محظوظ أو - مصطفى - لمعرفة ذلك، فالله قال - إني جاعل في الأرض خليفة - لاحظ كلمة - في الأرض - ولم يقل في السماء، وبالتالي فقد وُجد جدنا في جنّة عدن أول الأمر، ولكنّه عصى ربه فخرج من هذه الجنة إلى سطح الأرض حيث الشقاء هو وذريته حتى يوم الوقت المعلوم!

وقال لي:

- أخبرني شيخي إبراهيم عن شيوخه السابقين أنّه سمعهم يتحدثون عن مخلوقات كثيرة في طبقات الأرض، وذكر لي: منهم من له آذان كبيرة مثل آذان الفيلة يلتحف بها، وفيها أمّة لها أجساد بشرية ورؤوس كلاب أو ذئاب، وأمّة وجوه أهلها في صدورها بلا رقاب، وعمالقة من بقايا قوم عاد، وأمّة النسناس من أنصاف البشر لهم رأس وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة يرعون كما ترعى البهائم ويقفزون قفزاً شديدا على رجل واحدة، والرماديون من أشباه الزواحف رؤوسهم مفلطحة صلعاء، لهم أعين كالجراد، وست أصابع في كلّ يد، وهناك أصحاب البشرة الزرقاء، وأصحاب الأجساد الخضراء، إضافة إلى ملوك الجن، والعفاريت، والغيلان والسعالي والمردة، وفي الطبقات عوالم عجيبة وأمم كثيرة، وحيوانات من كل صنف لم يعرف البشر على سطح الأرض مثلها، ويظنونها من الخرافات مثل العنقاء والديناصور والقنطور والثور المجنح، وحوريات البحر، وفيها أمم يتربصون بالبشر وسيأتي يوم عليهم يتجاوزون أقطار الأرض المحبوسين فيها، ليصلوا إلى السطح حيث من كلّ حدب ينسلون، فيحتلون الأرض ويعيثون فيها فساداً!

وفكرت لوهلة في ما سمعت، فهل تكون الحية التي أغوت

أبانا رمزاً لأولئك الظلمانيين من الزواحف، أي الكيانات غير البشرية المتجسدة، وأنه حصل التهجين مع البشر في وقت مبكر، وهذا ما أدى إلى هبوط قدراتهم إلى الحالة الدنيا التي هم عليها الآن..!

ووجدت يوسف يتابع حكاياته، وفي كلّ واحدة منها ما يذهلني عما سبقني:

أخبرني شيخي إبراهيم عن شيوخه وصولاً إلى شيخهم ابن عربي أنّه قال:

– أراني الحقّ تعالى فيما يراه النائم، وأنا أطوف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم، فأنشدونا بيتين نسيت أحدهما وأذكر الثاني وهو:

لقد طفنا كما طفتم سنينا

بهذا البيت طرًا أجمعينا

فتعجبت من ذلك، وتسمّى لي أحدهم باسم لا أذكره، ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت: كم لك منذ مت؟

فقال: لي بضعة وأربعون ألف سنة.

فقلت له: فما لآدم هذا القدر من السنين؟!

فقال لي: عن أي آدم تقول، عن هذا الأقرب إليك عن غيره؟

فتذكرت حديثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق مائة ألف آدم، وقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسبني إليه من أولئك»

ثم جاءني صديقي يوسف بمجموعة مجلدات قديمة تكاد تتشقق صفحاتها من كثرة ما مرت عليها أيدي التلاميذ والمريدين، ومكتوب عليها - الفتوحات المكية - للشيخ محيي الدين ابن عربي، وقال لي:

- ينبغي أن تقرأها لعلك تجد فيها إجابات عن أسئلتك أو إشارات تخفف من حيرتك!

وفجأة سمعته ينشد قصيدة عجيبة لم أسمعها من قبل قط، وهو يتمايل طرباً في حالة من النشوة المسكرة:

سكوتٌ ثم صمتٌ ثم خَرْسُ
وعِلْمٌ ثم وَجْدٌ ثم رَمْـــس
وطينٌ ثم نارٌ ثم نـــورٌ
وبردٌ ثم ظلٌ ثم شمـــس
وحَزْنٌ ثم سهل ثم قَفْـر
ونهر ثم بَحْرٌ ثم يَبْـــس
وسكر ثم صَحْوٌ ثم شوقٌ
وقرب ثم وفر ثم أُنْـــس

وقَبْضٌ ثم بسط ثم مَحْوٌ
وفرق ثم جمع ثم طَمْـــس
وأَخْذٌ ثم ردّ ثم جـذبٌ
ووصف ثم كشف ثم لبـــس
عبارات لأقوامٍ تساوتْ
لديهم هذه الدنيا وفِلْـــس
وأصوات وراء الباب لك
عبارات الورى في القرب همس
وآخر ما يَؤول إليه عَبْـد
إذا بلغ المدَى حظّ ونفـــس
لأنّ الخلق خدّام الأمانـي
وحقّ الحقّ في التحقيق قُـدْس

فتوحات منامية

ولجت ممرات وطرقاً تضيق أحياناً حتى تظلم، وتتسع كثيراً حتى تغمرني بالضياء، وكانت محاطة بكتل من الجبال التي لم أرَ مثل ضخامتها من قبل، وكانت قيعان الوديان السحيقة محيطة من كلّ الجهات، فكأنما أنا في نفق عظيم، أو قبو هائل التكوين، فلم أر زرقة سماء، ولم أشعر بجريان ماء، وكما لو أنّي كنت أطير بجسمي الذي زال ثقله هابطاً، وانتقل عبر كلّ هذه العجائب، حتى وصلت بوابة هائلة يقف على بابها شيخ عليه حلل المهابة، وحليّ الجمال، لم أره من قبل أو أسمع به عرفت بالخاطر ولسان الحال أنه يقال له «الشيخ الأكبر الحاتمي الأندلسي»، فسلم عليّ وبش في وجهي حتى اطمأن روعي وقال لي:

- مرحبا بك في أرض السمسمة، ثم فتح لي كتاباً، وقال: اقرأ..!

فنظرت فيه، فوجدت صوراً تضجّ بالحياة، وبعضها بدا لي يغادر الصفحات ويكبر حتى يسد الفضاء، أو يصغر حتى لا يرى، وأنا باهت مما أرى، بل إني أسمع الأصوات أيضاً وأشمّ الروائح التي تخرج من بين الصفحات، وعجبت كيف لفيل ضخم أن يظهر من بين دفّتي الكتاب ويمر من بين يدي، أو تنين هائل يسد الأفق وينفث اللهب دون أن يحترق أحد، أو جمل كبير يخرج من سمّ الخياط الضيق، ولما بدا عليّ أنّي لا أستوعب الحال قال لي الشيخ:

- اعلم يا بني أنّ كثيراً من المحالات، التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها، هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين الذين يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم فيتركون هياكلهم في الأرض الدنيا ويتجردون، وتعطي هذه الأرض بالخاصية لكلّ من دخلها الفهم بجميع ما فيها من الألسنة.

وعجبت مما سمعت من مثل هذا الكلام أكثر ربما مما رأيت من العجائب، فلست معتاداً على مثل هذا الخطاب المفتون باللغة، عميق الدلالات، أتلقى معناه بسلاسة، كأنما أشرب من نبع ماء رائق رقراق وقت الحرّ الشديد، ورأيت كما لو أنّني أدخل أرضاً من الذهب الأحمر الليّن، فيها أشجار كلّها ذهب ورقاً

وجذوعاً وثماراً، ودخلت أرضاً أخرى لكن من فضّة بيضاء، ودخلت فيها أرضاً من الكافور الأبيض، ورأيت أُناساً فيها ممن أعرفهم من قبل، وعجبت لذلك فمن أتى بهم هنا وكيف ومتى، وفهمت أنّ سكان هذه الأرض ينبتون فيها كسائر النبات من غير تناسل بل يتكونون من أرضها، أما سرعة مشيهم في البرّ والبحر فهي أسرع من لمح البصر، ورأيت في هذه الأرض بحراً من تراب يجري مثلما يجري الماء، ورأيت أحجاراً صغاراً وكباراً يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس فتتآلف هذه الحجارة، فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة رمى سكانها بها في بحر التراب وركبوا فيها، وسافروا حيث يشتهون، ولا يمرّ المرء بحجر ولا شجر ولا شيء ويريد أن يكلّمه إلا كلّمه كما يكلم الرجل صاحبه ولهم لغات مختلفة، ورأيت فيها ألواناً لا أعرفها في ألوان الدنيا، ورأيت فيها معادن تشبه الذهب وما هي بذهب ولا نحاس، وأحجاراً من اللآلئ ينفذها البصر لصفائها شفّافة من اليواقيت الحمر، وعندهم ظلمة ونور من غير شمس تتعاقب، وظلمتهم لا تحجب البصر عن مدركه كما لا يحجبه النور، ورأيت فيها كعبة يطوف بها أهلها غير مكسوة، وتكلمهم إذا طافوا وتحيّيهم وتفيدهم علوماً لم تكن عندهم!

وقيل لي: مدائن أرض الحقيقة لا تحصى كثرة، وأهلها

أعرف الناس بالله، وكلّ ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع، فعلمنا أنّ العقول قاصرة، وأنّ الله قادر على جمع الضدّين، ووجود الجسم في مكانين، وقيام العرض بنفسه وانتقاله، وكلّ جسم يتشكل فيه الروحاني من ملك وجن وكلّ صورة يرى فيه الإنسان نفسه في النوم فمن أجساد هذه الأرض!

وقيل لي إنّ أهل هذه الأرض لا يسمحون لأبناء جلدتنا من البشر الملوثين بالخطايا الدخول إليها، فهم غير جاهزين عقلياً ولا روحياً للولوج إلى عالم القدرة، والعجائب التي لا يستوعبها عقل، ولم ترها عين أو تسمع بها أذن أو تخطر على قلب أحد!

وشعرت فجأة كما لو أنّي فقدت قدراتي على التحليق والطيران، وساحت بين ناظري قيعان الوديان، وبدأت بالغرق، واضطربت أيّما اضطراب، وسمعت دقّات قلبي تكاد تشقّ صدري، ووجدت نفسي في حالة تشبه الهذيان، ومن حولي تجمّعت عشرات العيون مشفقة ومندهشة، وعرفت منها عيني صديقي - يوسف -، وشعرت بيديه فوق صدري بحنو ليثبتني من ارتجافي، وكما لو أنه كان يخشى عليّ من خروجي من جسدي، ويقول لي بكلمات متعاقبة:

لا تقلق.. أنت بخير فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ!

بروج متربّصة

في شتاء العام ٢٠١٤ غادرت عمّان بعد أن هاجمتني قطعان الكآبة بشدّة، فقد صارت الرؤى التي في المنام تهاجمني في الصحو أيضاً، وتشاركني في حياتي اليومية، ولم أعد أميّز بين الشخصيات التي كتبت عنها في رواياتي، أو التي أقرأها في كتب أخرى، وتلك التي أراها في الواقع، كما أنّ البلاد أصبحت لا تطاق من الغلاء الفاحش، والازدحام، وتفاقم الفساد، إذ غصّت بالمهاجرين الهاربين بأرواحهم من جحيم القتال المستعر في سوريا والعراق وليبيا واليمن، والظروف القاسية للحياة في فلسطين ومصر، وقد تركت عملي الصحفي، وأطلقت لحيتي، وصحبت يوسف المجذوب في وديان السلط، وكان يقول لي بين الحين والآخر:

- إنك لن تستطيع معي صبراً، ولن تقوى على احتمال

مكابدة العزلة بين هذه الوديان، فكلّ إنسان ميّسر لما خلق له، وكان يشجعني على الانغماس في تفاصيل الحياة ويقول لي – ولا تنسى نصيبك من الدنيا، وإنّ العمل عبادة، والارتقاء يكون بحسن الخلق لا بكثرة العبادات واعتزال الناس، وإنّ ما يصلح لزيد قد لا يصلح لعمرو، والطريق لمن صدق لا لمن سبق، فلم تطل عزلتي تلك إلا شهراً أو يزيد عرفت فيها لذات عظيمة من التمرد على الذات والتأمل لاكتشاف النفس وتحمّل الصعوبات، وشعرت كما لو أنّ العالم كلّه في أعماقي، ثم قادني بحثي عن العمل في لحظات صحوي، وإلحاح الحياة اليومية التي لا ترحم ومتطلباتها الطاحنة إلى العمل في – الفجيرة – وهي إمارة صغيرة وادعة على ساحل خليج عُمان، وفيها تتفتح أول خيوط الفجر قبل كلّ بلاد العرب، فتشرق شمسها صافية ولطيفة وكأنها قد غمست بماء البحر، لا سيما في فصلي الشتاء والربيع، وقد وجدت فيها راحة عجيبة، فقد كانت منفتحة على الخليج العربي الممتد الذي يفضي إلى المحيط الهندي الشاسع من جهة، فيما تحرسها سلسلة من الجبال الرواسي من الجهة الأخرى، وكانت تنفسح على واحات نخل كثيفة ما بين الجبل والبحر، ووديان بعضها ضحل وقليل منها سحيق، ووجدت أهلها من الأطياب الكرماء، وأمراءها الذين يلقبون

بالشيوخ في قمة التواضع، لا حاجب بينهم وبين عامة الناس، ولا حراسات كثيفة ترافقهم، وتلك خصلة لـم تعـد توجـد في أيّ دولة من بلاد العـرب، وكـان من يزور هذه البـلاد لا يرغب بالرحيل عنها، لتلك السكينة التي تسري بين جنباتها، وطاقة الطمأنينة التي تنتشر في هوائها، ومن فوق جبالها الراسخة!

كنت أقضي جلّ وقتي منعزلاً في شقتي بعد أن أنهي عملي اليومي بانتظام، وقد تهيأت لي فرصة للقراءة والكتابة كنت أفتقدها منذ زمن طويل في ظلّ الركض المتواصل نحو العيش، فقد انسجمت أيضاً في إجازاتي نهاية كلّ أسبوع مع تلك الحياة النابضة في مدينة - دبي - القريبة حيث يعيش هناك نسيج عجيب من البشر قدموا من كلّ بلاد العالم تقريباً، يمثلون ما يزيد عن مئتي جنسية، وقد مرّت عليّ في هذه البلاد سنة هادئة لم تعد تطاردني فيها تلك الرؤى المحيّرة، ولا الخيالات المقلقة، وأحسست كما لو أن ما جرى لي في عمّان من قبل كابوساً غريباً أو تخيلاً لا أساس له، حتى جاء يوم تعرفت فيه على - محمّد - من أبناء هذه الديار، ولقد لفت انتباهي كثرة استخدام هذا الاسم عند أهلها، حتى أنّي لمحت أيضاً لافتةً كتب عليها - المركز المحمّدي للقرآن والسنة - ربما

محبّة للنبي الكريم، فقد كان بعض كبار السن فيهم يذكرون تلك الموالد التي تقام في القرى، والتي يسمونها - المالد - وكانوا يخصصونها للصلاة على النبي وذكر الله قبل أن تطل عليهم حفلات - الزار - بطقوسها الصاخبة، وبإيقاعاتها المثيرة للصداع أكثر مما يمكن أن تكون سبباً في راحة البال أو الشفاء، وقبل أن تهبّ على الإمارات بعض رياح الوهابية المتشددة من جيرانهم السعوديين خلال القرنين الماضيين، وفي الحقيقة بقيت هذه الرياح ضعيفة رغم وجود حدود تصل إلى نحو ٤٥٠ كيلومتراً بين البلدين، جلها في صحراء الربع الخالي الشاسعة، فقد وقف شيخ البلاد في وجهها بقوة، و اختارت أبوظبي ودبي المذهب المالكي المعتدل، فيما تقاسمت بقية الإمارات الأخرى فيما بينها المذاهب الأربعة بكل سلاسة!

كان صديقي الجديد يقترب من الوصول إلى سنّ الحكمة حيث بداية الأربعينيات، كثير الأسفار بما أوتي من سعة في الرزق إضافة إلى ما كانت تملكه عائلته الميسورة، وكان حادّ الذكاء، ومتيقظ الحواس بشكل استثنائي، وقارئاً مثابراً، وعرفت أنه مهتم جداً بعلوم الفلك وخريطة النجوم في السماء وتأثيراتها على البشر، وكان يملك في بيته تلسكوباً مقرباً لمشاهدة حركة الأفلاك، وتسجيل ملاحظاته خصوصاً حينما

تكون السماء صافية، وأحسست به يبحث في بطون الكتب والأفلام والحوارات والأسفار عن المعارف أينما وجدت، ولم يكن يعرف عن كتابي شيئاً فقد غادرت عمّان وأنا أحرص على أن لا أحمل معي أي نسخة متخففاً من لعنته وهارباً من مطاردة شخصياته لي ومزاحمتهم حياتي، ولكنّ صديقي - محمّد - قد عرف عن أمر تورطي بالكتابة بحدسه الخاص، وعرفت متأخراً أنه استطاع الحصول على نسخة من - أبناء السماء - عن طريق الناشر اللبناني مباشرة، وأخفى الأمر عنّي حتى حين!

ذات عصر يوم من نوفمبر ٢٠١٤ اتصل بي ليخبرني بأنه سيمرّ عليّ بسيارته لنذهب في نزهة برّية لبعض مناطق الإمارة، وقال لي حينها:

- الجو بديع في الشتاء هنا ليلاً ونهاراً فلا تشغل نفسك بالكتب والتلفزيون ومصائد الإنترنت التي تسرق الوقت، فالحياة بكلّ عبقها وجماليتها وتوهجها تستحق أن ننغمس فيها تماماً.

وكان محقّاً في ذلك، فقد مررنا بأودية جميلة محاطة بواحات النخل وتعلوها بعض القلاع والحصون القديمة، وتوقفنا عند - سوق الجمعة - بما يزخر من الفواكه الاستوائية الطازجة

والخضروات القادمة من مزارع المنطقة أو من ولاية - مدحاء- العُمانية القريبة، والسجاد والنُحاسيات والفخار والحرامات من الهند والباكستان والصين، وكان يشير لي بين الحين والآخر إلى أن الاتحاد قام بين الإمارات السبع على أسس البيت الواحد، لكنّ البريطانيين هم من خطط الحدود بين هذه الإمارات بناء على تحالفات القبائل والانتماءات إلى الشيوخ الحكام، ولهذا كنا نمرّ أحيانا من قرية تابعة لإمارة مثل رأس الخيمة، ثم نعود مرة أخرى إلى الفجيرة، وبعدها قد نقطع مناطق تابعة للشارقة أو عجمان وهكذا..!

ولعل الأعجب أن تكون بين هذه الإمارات ولايات تابعة لسلطنة عُمان منعزلة تماماً إذ لا حدود برية أو بحرية لها مع المناطق الأخرى من بلادها، ومع ذلك فالحدود كانت وهمية إذ لا حرس ولا تفتيش ولا أسلاك شائكة مثل بقية حدود العرب، كانت البلاد حقاً بيتاً واحداً يتنقل المرء بين غرفه بكل هدوء!

توقفنا في سوق الجمعة قليلاً حيث اشترينا من بعض الهنود عصير جوز الهند الطازج وشربناه مباشرة من تلك الكرات الصلدة المغطاة بالألياف البنية التي تشبه الشعر، فيما واصل صديقي بسيارته الرينج البيضاء الصعود غرباً في الطريق

المتعرج حتى أصبحت واحات - الذيد - على يسارنا، فتركها ويمّم باتجاه قرية صغيرة محاطة برمال الصحراء الناعمة تدعى - الحنية - وتوغل في داخل الكثبان متجاوزاً بعض قطعان الجمال، حتى وصل منطقة بعيدة عن العمران، وكان ثمة مخيم صغير قد أقيم وفيه بعض الرجال، قد أوقفوا سياراتهم قرب الطريق الرملي وجلسوا حفاة فوق بساط صوفي تحت خيمة بيضاء يبدو أنها قد أنشئت خصيصاً لسهرتهم، وقد عرّفني محمد على أصدقائه الذين رحبوا بي بحفاوة، ولكنّي صاحب ذاكرة قصيرة لا أحفظ عادة الأسماء ولا أنشغل بالألقاب، فقد جذبتني تلك الجلسة الخرافية إلى أجوائها الساحرة، فيما الشمس تحاول أن تغادر المكان بتمهل، وقد بدأ بعض العمال البنغاليين في إيقاد النيران وشواء اللحم وتجهيز العشاء، وإنارة المنطقة المحيطة بالمصابيح الكشافة التي تعمل على مولدات متحركة تنفع لمثل هذه المناطق القصية، فيما ذهبنا بجولة فوق الكثبان وتمرغنا بالرمل ضاحكين، وكنت منشغلاً بالنظر إلى صفحة السماء الصافية، أستمع إلى شروحات محمّد، الذي جلس قربي، وتبرع بأن يشرح لي عن خريطة النجوم والكواكب التي في الأعالي:

- انظر إلى عُطارد الذي يشعّ لأهله بطاقة الذكاء، وكوكب

الزهرة أو نجم سهيل كما يسميه الناس وهو يفيض بالحب والجمال، والمريخ كوكب العنف والحروب والشقاق، وهناك المشتري، الكوكب الأكبر الذي يمنح الحظ والتفاؤل، وذاك زحل كوكب النحس وسوء الطالع، وشاهد القمر في تجلياته بين المحاق والبدر، وتقلباته وفيضه أحياناً بالنور والإبداع!

قلت له: أحس أنك تصف هذه الكواكب كأنها كائنات حية عملاقة وعاقلة!

قال لي: ومن قال إنها ليست كذلك، إن مفهومنا عن الكائنات نقيسه بتجربتنا البشرية وكأننا الكائنات العاقلة الوحيدة في هذا الكون، وكأنّ شكلنا الخارجي يجب أن يكون النموذج الأوحد، انظر إلى هذه الجبال التي أمامنا يا صديقي، وقل لي ألا تشعر بأنها كائنات أيضاً بغض النظر عن معرفتك للغتها أو بحثك عن وجه لها لتكلمها أو صيغة بشرية يمكن التفاهم معها؟؟

ألم يقل الله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

أرأيت كيف أن الجبال وهي غير السماء والأرض أبت وأشفقت، أليست هذه صفات لكائنات لديها مشاعر أكثر رقيا كما يبدو مما لدينا!

ولما سألته عن فكرة الأبراج وحقيقة صحتها من الإشاعات والتضليل قال لي متحمساً:

- هناك اثنا عشر برجاً أو بيتاً فلكياً في السماء مثل دائرة تبدأ من الشرق وتنتهي به، وهو أمر عرفه الهندوس والسومريون والحضارات القديمة، وبما أنّ الأرض تدور حول نفسها مرّة كل ٢٤ ساعة، فإنّ كلّ برج له فرصة للظهور ساعتين في الأفق الشرقي، ففي ساعة ميلاد الإنسان نرى ما البرج الذي كان فعّالاً في خط الأفق وما طالعه، فهناك الأبراج التي تشتغل على العناصر الأربعة للطبيعة منها ما هو هوائي أو مائي أو ناري أو ترابي، ولهذا فإنّ الطاقة الكهرومغناطيسية القادمة من ذلك البرج في تلك الساعة تساهم في التأثير على البشر الذين يولدون حينها..!

صدقني لو علم الناس مقدار تأثيرات هذه الأبراج لربما اتخذوها أرباباً من دون الله، ولكن فوق كلّ ذي علم عليم، وفوق كل ذي قدرة قدير!

وفجأة غير الحديث باتجاه آخر:

- هل يذكرك هذا المكان بوادي رم؟

قلت له وقد بوغتّ بسؤاله ولم أدر مغزى كلماته:

- جداً. .ولكن هل زرت وادي رم أيضاً في رحلاتك التي

لا تنتهي يا صديقي ابن بطوطة!

ضحك طويلاً وقال:

- زرته مرتين.. مرة مع بعض الأصدقاء قبل سنوات حيث قضينا عدة ليال في التأمل.. ومرة أخرى معك!

وقد فاجأني بقوله مرة أخرى، فأنا لا أذكر أنّي كنت هناك معه إذ لم أعرفه من قبل، ولما رأى الاستنكار والتساؤل على قسمات وجهي أردف قائلاً:

- أقصد معك في روايتك حينما قابلت الشيخ المحب!

وكما لو أن الرمال الشاسعة التي تحرسها الجبال الحادّة من الشرق وتطل على الساحل من بعيد قد بدأت تحيط بي من كلّ جانب، متحولة إلى دوامة عملاقة تدور ببطء تحاول ابتلاعي، وأنا أتلوى بلا حول لي ولا قوة، وشعرت بأنّ ما هربت منه هناك قد عاد ليواجهني بقوة هنا من جديد في هذه البلاد القصيّة، ولاحظ الرجل اضطرابي، وتلون وجهي، فهو فيما كان يقصد أن يفاجئني ليخفف عليّ من وقع الغربة المؤلم- كما ظهر لي - فقد نبش ملفاً نائماً في أعماقي منذ مدة، ولهذا وجدتني أقول له بصوت فيه كثير من الحزن:

- حتى أنت يا رجل!

رأيته ينظر إليّ باستحياء، كما لو أنه ارتكب جرماً، وأخذ

بالاعتذار، وأخبرني أنه قرأ الرواية في ليلة واحدة، وأنه يصدق ما جاء فيها، ولم يقصد أن يثير حزني أو هلعي، بل أحبّ أن يعرفني بهذا المكان الصحراوي الوحيد في الإمارة؛ حيث تتعانق الجبال الشاهقة بالرمال بما يشبه وادي رم، ولم يكن من فائدة حينها كما يبدو أن أكرر له أسطوانتي المعهودة بأن روايتي عمل أدبي، ولم أزر وادي رم من قبل، ولا يوجد شيخ أعرفه اسمه «المحب» .

غير أنه فاجأني بحديث آخر، إذ إنه كان يحضر مجالس الشيخ الصوفي - عبدالرحيم المريد - في دبي، وأنّه شاهد بنفسه ضرب الدبوس أو الشيش، وإدخال السيف في جسد التلاميذ من دون أن تسيل الدماء، وأنّه بعد رحيل الشيخ في العام ٢٠٠٧ م تفرق مريدوه، وقام حاكم دبي بمنع هذا الطقس مجدداً، واقتصرت بعض اللقاءات على المدح النبوي والإنشاد وذكر الله، وأخبرني أنّ المريد حدثهم عن - الشيخ المحبّ - أكثر من مرة، وأنه يعيش في بلاد الشام، ولا يظهر إلا على خاصّة الخاصّة، وأنّ القرب منه، والأخذ من علمه موضع المتنافسين، وهو يتشوق إلى لقائه!

وأخبرني أنّ المريد قال له يوماً:

- إن استطعت أن تجد إليه سبيلاً فكن أول السالكين ولو بعد حين!

ولم أجد في تلك اللحظات المحيرة من شيء أقوله أبلغ من الصمت، فطلبت منه أن نترك المكان ونعود إلى الفجيرة، فاحترم قراري، وودع رفاقه، وقلت في سرّي وهو يعود بي إلى المدينة من جديد:

- أي ورطة أوقعت نفسي فيها، وأين المفر مما صنعت يداي!

إشارات علوية

زرت عمّان في إجازة قصيرة بعد تلك الليلة العاصفة، وتمنيت لو أنني ألتقي - أمل - ولو صدفة من جديد في أحد شوارعها، أو ربما في تلك المقاهي والأمكنة التي كنا نتردد عليها، وأحسست لأوّل مرة أنّ المدينة تتغير بصورة لافتة، فلا شيء يبقى على حاله، حتى تكاد تصبح مدينة حجرية بلا أيّ روح، فلا ماء يجري بين جنباتها، وليس ثمّة حتى حديقة كبرى يمكن أن تكسر إيقاع جفافها، بل لا يعدو الوضع إلا مجرد زحف حجري متواصل حتى جاوز الضواحي من كلّ الجهات، إضافة إلى ازدحام بشري عجيب بحثاً عن واحة للسلام وسط نيران ملتهبة!

كانت عمان تبدو لي رغم كلّ تبدلاتها بهيّة وخجولة تلمع شرفاتها من قطرات المطر، وتتدثر بيوتها بسفوح الجبال باحثة

عن الدفء فيما المساء ينشر ستائره المعتمة شيئاً فشيئاً فوق المدينة، وأحسست كما لو أنّ - أمل - كانت حكاية قرأتها في كتاب، أو حدثني عنها أحد الأصدقاء ولم ألتق بها، فكيف جرى بيننا كلّ ما جرى ثم انسحبت بشكل مفاجئ إلى غير رجعة!

ورحت أسترجع لقاءاتنا لحظة بلحظة، وحرت في أمرها، فهل تكون من أولئك الذين كانت تسيطر عليهم تلك الكيانات اللامرئية، وتعبث في عقولهم، وتتحكم في رؤاهم في الصحو والنوم، أم قد اطلعت على شيء من تلك الأسرار الظلمانية ورضيت بأن تكون أسيرة للمستحوذين، وأرادت أن تستميلني إليهم بدلاً من أن أبقى مع المتمردين!

لست أدري في الحقيقة، ولم تكن بي تلك اللحظة وأنا أهبط شارع الرينبو في جبل عمّان باتجاه البلد رغبة غير التمتع بتلك اللحظات الخرافية التي أفتقدها في غربتي.

كان المطر يهطل على قلبي قبل أن يصل إلى الأرض، غاسلاً كلّ ما أرى من البنايات والشوارع والأشجار، وحتى جسدي الذي لم يعد يأبه ببرودة الجو، وشآبيب المطر، وأحسست بأنّي أمضيت سنةً أو يزيد في لقاء يومي مع الشمس حتى أصابتني بآفة التكرار، ورغبت بأن أجرّب

الفصول الأربعة كلها كي تمرّ على جسدي، فيمطر ويزهر ويجف ويتجدد، لكن أن تبقى الشمس مسلطة على رأسي كلّ يوم، وغارزة أشعتها في عيني أمر لم يعد يحتمل!

ولم يكن ثمّة بدّ من زيارة صديقي يوسف المجذوب الذي شعرت بتغير أحواله في ذلك اللقاء، وكأنّه كبر دهراً في ذلك العام الذي غبت فيه، وأحسست بأنّه يريد أن يخصّني بشيء لأنشره على الناس، حتى لا يضيع برحيله، وقد بقيت معه في إحدى الليالي حتى مطلع الفجر، نتحاور ونتسامر ونتأمل أحداث الكون، وما جرى وما سيجري، ثم فجأة جاءني بورقة وقلم وقال لي والعواصف في الخارج تئز بأصواتها والمطر يواصل النقر على الشرفات، والرعد يرجّ المكان، وكأننا في صخب كوني مقصود:

– أريد أن أخبرك بأمور خطيرة، فانقل عني دون تحوير ولا تغيير فإنّي أخشى الرحيل دون أن أبلغ الرسالة، وأؤدي الأمانة، وإنّي غاب عني أكثرها وبقي شيء يسير مما أتذكره..!

ووجدتني حينئذ في موقف الرهبة، أشعر بثقل الأمانة، وأكتب ما يمليه عليّ دون توقف:

– أخبرني شيخي إبراهيم أنه رأى بعض ما يجري في زماني دون أن يكون له من الشاهدين، وطلب منّي أن أبلغه إلى

الناس حين يئين أوانه، وإنّي أراه قد حان الآن وحضر أهله:

فاعلم بأنّه سيظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس، فقد فشلوا في إعمار الأرض، وغلبت عليهم شقوتهم، وحيل بينهم وبين جنتهم، إلا قليلاً ممن رحم ربي، وعندها فليرتقبوا العذاب نجا من نجا وهلك من هلك!

وأخبرهم عن الإشارات: إذا ظهرت نارٌ كبرى في الشرق تحرق الأخضر واليابس، وإذا انكشفت أرض الميعاد عن مملكة بائدة من الذهب، وإذا اخترع البشر آلة يرون بها أحداث القرون الغابرة، والأمم الأولى، وإذا ظهر في اليمن رجل أعوج الفخذين وأشعل الفتن باسم الله، وإذا ظهرت في بلاد العرب العاربة رايات سود قادمة من أرض الشرق، وإذا ظهر مخلوق غريب عجيب يتكلم بجميع الألسن، وإذا خرج الناس عراة في واحدة من بلادكم، وإذا الأهرامات أظهرت ألغازها وكشفت أسرارها، وإذا الأقمار في السماء أرسلت إليكم الصواعق، وإذا سحابة من دخان عظيم غطت بلاد ما بين البحرين، وهلك جيش كبير في أرض صحراوية، وظهر رجل غريب الأطوار يتبعه الناس من مكان إلى آخر وأسقط ثلاث ممالك كبرى، وإذا ظهر على الناس فجأة شعب غريب المظهر لم يره الناس من قبل، وإذا عُبدت الأوثان من جديد، وانكشف النيل عن معدن جديد لم يعرفه

العلماء من قبل، وأصبحت بحيرة طبريا حمراء، وشتم الناس أنبياءهم، وظهرت النسخ المخفية من الكتب المقدسة، وإذا بلاد موسى وهارون استيقظت على كارثة كبرى، وإذا تساقطت حجارة بيت المقدس، وارتفع بنيان الهيكل، وخرج من البحر مخلوق عجيب، ورأى الناس في الشام رجلا يسير على الماء ويطير في الهواء، وإذا كثر الفحش في الشوارع، وزوّج الرجال إلى الرجال، والنساء إلى النساء، وكثر السحرة والمشعوذون، وتعطلت من قوى غريبة كلّ الأنوار، وشاعت السيوف والرماح والخناجر بين الناس، وأصبحت الحمير والخيول أغلى من السيارات، واختفت الشمس عن الخلائق عاماً وأسبوعًا وبضعة أيام، وظهر الذي نصفه من بشر ونصفه من حديد، لا هو بالبشري الخالص ولا بالعفريت ولا بالآلة، وسقط مطر أسود سبعة أيام متواصلة في بلاد النبي صالح، وصار زيت الزيتون أغلى من الذهب، وكثر القتل حتى يهلك أغلب الرجال فتزفّ كلّ خمسين امرأة إلى رجل واحد، وتاجر البشر بلحوم بني جنسهم، وظهر رجل من العرب يدعي النبوة لأربعين يومًا فيقتله رجل من العجم، وحلقت في بعض الأبراج الكبرى الغربان ورفع فوق الكعبة البنيان، واقترب الأغراب من بحار الأعراب!

وعند ذلك يظهر السامري مرة أخرى في تجسّد جديد ليفتن الخلق بعجل جديد، ويري البشر أحابيله، يراه بعضهم كأنّما هو نبي مخلص لهم من المآسي، ومنقذ من الكوارث، فيفتتن به خلق كثير وخصوصًا من المطبوع على جباههم علامته، يكونون مسرعين مثل العبيد، يتبعونه إلى كلّ مكان، وعندها ارتقب أن يظهر آخر فرسان الرحمن، الولي الخاتم، المختار، المعلم، الغريب مع حواريه الغرباء، فطوبى له ولهم، ينكره الكثيرون، ويعرفه القليلون فإن جاء ورأيته، وسيكون لك ذلك، فاعرفه والزمه تنج وتكن من أصحاب النعيم المقيم، وإلا تكن من الغابرين!

خيول نورانية

في ربيع العام ٢٠١٥ م جئت عمّان مجدداً ولكن برفقة صديقي محمّد، بناءً على شغفه المتواصل في ضرورة البحث عن الشيخ المحبّ ومقابلته، وعبثاً حاولت أكثر من مرّة أن أتنصل مما كتبت من قبل في روايتي، وأنّه محض خيال، غير أنّه لم يكن يأبه لأيّ تفسير، وكان يكرر عليّ مراراً أنّ الأمر لا يتعلق بما كتبته أنا عنه بل بكلمات - الشيخ المريد - وحديثه عنه كثيراً قبل رحيله، وأنّ الاسم قد يكون غير دقيق تماماً، لكنه خيط يقود إلى ذلك الشيخ الغريب في وقته، المحبّ، العاشق، الوله المتأله، الممتلئ بالنور الأسمى، الذي قد يكون سيد الأوان، إذا طلعت شمسه غابت النجوم والكواكب للأبدال والنجباء والنقباء والأولياء والمجاذيب، لأنه الفرد الجامع، الذي تتالت الإشارات إلى قرب ظهوره!

وحرت ماذا أفعل بضيفي الذي اختلط الأمر عليّ بين أن أحتفي به محبّة، وهو الذي أغرقني بفيض كرمه من قبل، وبين البدء برحلة بحث لا أدري أين ستوصلنا، وماذا سيقول الناس عنّا ونحن نبحث عن طيف خفي، وشخصية هلامية ضائعة بين الحكايات الشعبية وحبر الكتب والأساطير وربما أيضاً الحقيقة، وتمنيت لو أنّ الدكتور جمال ما يزال هنا حتى يتكفل بذلك، فقد كان لمثل هذه الأمور من المتحمسين، ولمثل هذه المسائل العويصة من الحالّين، ولم يكن يخذل أحداً في رفده بعلومه، أو حتى مدّه بقصص مشابهة أو مرويات عجيبة لا حدود لها، ذلك أنّه لم يكن ينكر أي شيء، حتى لو جئته ذات صباح وقلت له:

- هل تعلم يا عزيزي أنني اكتشفت طريقة للطيران مثل العصافير!

- تقصد الطيران بنفسك مثل سوبرمان، نعم هذا ممكن، أنا قرأت عن مثل هؤلاء، وسأحدثك عن ذلك، ولكن احذر أن تحدث أحداً عن هذا السرّ!

- يقال بأنّ شيخاً في سوريا لديه كمية من الزئبق الأحمر، ويريد تهريبها للأردن فهل لديك من يشتريها!

- طبعا، سأرتب لك الأمر، المهم أن لا تنسى نسبتي من الثمن!

- بالمناسبة هل سمعت بالطفل المعجزة الذي ظهر في الصين ويتكلم بلغة غريبة منقرضة!

- لم أسمع بعد، ولكن مثل هذه الأمور تكررت كثيراً، وأعتقد أنني إن قابلته سأحل لك معضلته ونتوصل إلى هذه اللغة، عموما هذه الأمور كما تعرف من علامات الساعة!

وهكذا كانت لكلّ مشكلة أمامه مجموعة من الحلول، والمقترحات، والاستشارات حتى إن لم تكن مفيدة حقيقة فقد كانت مسلّية، وكان على المحاور له أن يلتقط الأشياء الجادة من بين كلّ هذا الخليط العجيب، كمن يبحث عن قطعة من الذهب في كوم من الحصى..!

وأمام كلّ ذلك، جاءتني خاطرة لزيارة صديقي يوسف المجذوب، فلا بد أن لديه علماً ما بالشيخ المحبّ أو سمع بهذا الاسم من قبل، وعجبت من نفسي لم أصبحت متورطاً في تصديق وجوده أساساً..!

ذهبت إلى وادي شعيب من جديد، ولكن هذه المرة برفقة محمّد، وكانت الزيارة أشبه بنزهة مذهلة حيث الخضرة تنتشر على مدّ البصر مثل ثوب بهيج مطرز بالورود والأزهار، فيما المياه تجري في سيلها بين أشجار الحور والسنديان والتين باتجاه الوادي نزولاً إلى الأغوار، وعلى مسار الطريق المتعرج ينتشر باعة

الفاكهة والورود، ومرّة أخرى وجدت صديقي المجذوب يفقد شيئاً من بهائه الجسدي حين رأيته حتى يكاد يتحول إلى طيف، وحين التقاه محمد وجها لوجه، شعرت بأنّ ثمة رابطاً بين الرجلين قد توثق من جديد، وكأنهما ربما يعرفان بعضهما بعضاً منذ عهود قديمة قبل تشكل الأجساد، والقدوم إلى هذا العالم، وكان بادياً علينا القلق رغم الهدوء الظاهري، ولم أكد أبدأ بالسؤال عن مقصدنا، حتى بادرنا بقوله:

- لا يحدث الأمر بهذه السهولة، تحتاجان إلى خلوة وصيام لثلاثة أيام على الأقل!

قلت له وأنا أستغرب جملته التي لا تفضي إلى شيء:

- جئنا نسألك عن شيخ يدعى المحبّ، هل سمعت به من قبل؟

- أجبتك قبل أن تبادر بالسؤال، الأمر يحتاج إلى نوع من التطهر وخلع هموم الدنيا قبل المقابلة، وقد لا تحصل أبداً، فقد يكون الشيخ في أحد سياحاته ولن يظهر عليكما...!

ثم صمت ملياً وقال: عجيب كيف عرفتم بأمره...!

وصاح محمد حينها مندهشا يكاد يرقص:

- الحمد لله.. ألم أقل لك.. قلبي لن يخذلني، وشيخي المريد لم يكن ليخبرني بأمر دون أن يتحقق، ويبدو أنّه قد آن أوانه!

كان عليَ أن أقودهم بنفسي هذه المرة إلى – البتراء –، فقد رأيت أنّ الإشارات كلها كانت تدل على ذلك، وأنّ ما قد كتبته في – أبناء السماء – يبدو قد تحول إلى واقع، وحرت في أمري، هل إنّي كتبت تلك الرواية من خيالي المحلق فحسب، ولم يكن له أثر في الواقع أم تواطأ عليّ من حولي وأخبروني بأمور تخيلتها ولم يكن لها أصل، أم أنّ كلّ ما جرى توهمات ولم تحصل قط...!

وداهمتني حينها كلمات من قصيدة لشاعر ياباني قرأتها ذات مرة:

لم أعد أدري إن كنت فراشة
تحلم بأنها إنسان
أم أنني إنسان الآن
يحلم بأنه فراشة!

وتابعت حواري الذي يتلجلج في نفسي، وأسئلتي التي تبحث عن إجابات:

هل زرت وادي رام من قبل، وتجولت في البتراء، أم أني حلمت بذلك، أم أملي عليّ ما كتبته دون حول منّي ولا انتباه؟

وإنّ من أشد الأمور على المرء أن لا يعرف الخط الفاصل بين الحلم والحقيقة، فلا يوجد من يؤكد له ذلك، لقد قال لي

مرة أحد الأصدقاء:

- هل تظن أننا ننظر إلى الخارج ونرى العالم من حولنا بكلّ ما فيه؟

قلت له:

- بلى.. وهل هذا الأمر موضع شكّ ويحتاج مثل هذا الأمر إلى توضيح!

قال لي حينها ما جعلني أعيد النظر بكل المسلمات:

- هل فكرت مرة بأنّ كلّ ما ننظر إليه هو في أعماقنا، ولا يوجد شيء خارجنا أساساً، المسألة وهم وخداع بصري لا يستطيع الدماغ استيعابه!

وشعرت كما لو أنّ مثل هذه النظريات التي تتفجر بالأسئلة المجنونة أمامنا هي التي ساهمت في نقل الناس خطوات سريعة إلى الأمام، فالتفكير خارج الصندوق التقليدي يقود إلى قفزات للبشرية ترتقي بها عالياً، والأفكار الجامحة بلا أي حدود تبدو لي أحياناً أقرب إلى الحقيقة من تلك النفايات المعلبة للمعارف المضلّلة التي أطعمونا إياها ولأطفالنا من بعد في المدارس لسنوات طويلة وما يزالون يفعلون ذلك إلى اليوم..!

لا تسألوني كيف تم الأمر، وصبرنا على خلوة ثلاثة أيام كاملة، لم نكن فيها نتكلم بشي ما عدا الذكر والصلاة على

النبي، وقليل من الطعام كي يحفظ النفس، ولوجه الحقيقة أحسست بأنّ صديقيّ - محمد - ومن قبله المجذوب يدفعانني نحو هاوية لا أدري أين ستحطّ بي، وأحياناً ربما أتخيل بأنّهما سيقودانني إلى مملكة الأسرار الخفية.

لا أذكر مرة أنني عرفت شيخاً يدعى المحبّ، ولست قريباً من عالم - الشيوخ - في واقع الأمر، فمن فرط حريتي يظنونني ملحداً، ومن شدة تعنتهم أحسبهم من الضالين، حتى إن تقادم السنوات على - أبناء السماء - وعزوف النقاد عن تناولها، والأمسية اليتيمة التي ناقشتها فيها قد أصبحت من الماضي، غير أنّه من عادتي أن لا أقرأ أيّ عمل لي بعد كتابته، ولهذا فقد بدا لي كل ما يذكّرني بهذه الشخصيات والأحداث قادمة من رواية لرجل آخر، لا علاقة لي به، فقد حصل الأمر وكتبتها بشكل متواصل خلال أشهر قليلة، ثم تورط بها الناشر من بعدي، ولم أرجع إليها بعد ذلك أبداً!

هل رقصت في الليلة الأخيرة قبل أن ينفرط عقد الخلوة، ونلتهم خروفاً مشوياً داخل حفرة رملية تفيض بالجمر، يدعونه هنا «الزرب» لذة للآكلين، انتقاماً للصيام، وهل - انتبذنا - حينها أم بقينا في قمّة الصحو، ذلك ما لا أذكره أيضاً فقط حملتنا سحب النشوة عالياً، وتقلبنا فوق الرمل نناجي ربّ

النجوم في الأعالي أن يهطل علينا بقليل من ماء عين اليقين فتقرّ القلوب بها ويهدأ وجيبها المتسارع الذي يكاد يشقّ الصدور..!

وكأنّي رأيتُ فيما رأيت ليلتها أو ربما ذات ليلة من حيوات سابقة مرّت عليّ مثل فيلم سينمائي، كما لو أني أحلّق بالأعالي دون جناحين، وقيل لي:

- هل فكرت أن تطير يوماً !

وأجبت دون صوت بنعم، فقيل لي:

- طر إذن واتبع أمّة السائرين في مقام الطائرين..!

ورفعتُ جسدي قليلاً، وكان خفيفاً فطرت وحلّقت فوق الجبال والوديان دون أن أصطدم بها، وقال لي صوت خفيّ:

- الأسماك تسبح في محيطها المائي دون أن تفكر بالغرق، ولو فكرت أنت بالسباحة في محيطك الهوائي بشكل عفوي لفعلت، لكنّكم بني البشر قد نسيتم عنصركم الأولي ورضيتم بالخنوع للتعاليم الخادعة بما هو ممكن وما هو ممنوع وما هو مستحيل!

وقلت في نفسي حينها: الحجب عقلية قبل أن تكون فعلية!

ورأيت يوسف المجذوب ومحمد قد أخذهما الوجد ومعهما خلق كثير لا أعرف من أين طلعوا علينا، يدورون حول أنفسهم

في رقصة مولوية، وعرفت منهم بالإشارات دون العبارات، وبقائمة الأسماء وهي تطير بأحرفها أمامي في الفضاء: فريد الدين العطار، والحلاج، وجلال الدين الرومي، وابن عربي، والجنيد، والسهروردي، والدباغ، والسقطي، والكرخي، وذو النون المصري، والشاذلي، والتيجاني، والجيلاني، والبلخي، والحافي، وأبو يزيد البسطامي، والغزالي، والتبريزي، ورأيت بينهم باتي أيضاً وكلّ من كان في دورة جلعاد، وكثير منهم أراه أوّل مرة، وكان يوسف المجذوب وسطهم ينشد وكأنّه يخاطب أحداً أمامه متسائلاً بحزن، فيما انثالت موسيقى عجيبة ما سمعت مثلها من قبل، وكأنّ الكون كلّه يغني، ويدور:

ألست أنا أنا..!

أنا الشيخ.. أنا الشاب

أنا السهم.. أنا القوس

ألست أنا أنا..!

بل أنا أنا..!

أنا الملك.. وأنا العرش معا..

أنا التابع.. وأنا الأمير

أنا هذا وأنا ذاك..!

لا أنا بالثمل.. ولا أنا بالمفيق..

ولا أنا بالنائم ولا أنا باليقظ..

ولا أنا مع الحبيب ولا أنا بدونه..

ولا أنا بالمحزون.. ولا أنا بالمسرور.....!

أنا الساقي والكأس.. أنا الشراب والشارب..!

أنا الداء وأنا الدواء... أنا المريض وأنا الطبيب...!

أنا هو هو....!

فمن أنا

من أنا....!

لا أنا بالقادم ولا بالمفارق، ولا بالبعيد ولا بالقريب، ولا بالمعطي ولا بالمانع، ولا بالسحيق ولا بالشاهق، ولا بالمظلم ولا بالمنير، ولا بالمطمئن ولا بالمتوجس، ولا بالأليف ولا بالمتوحش، ولا بالقصيّ ولا بالداني!

فمن أنا...!

ورأيت كما لو أن طيفاً من النور الأزرق الخافت المعجون بالبياض الساطع قد ملأ عليّ بصري وسمعي وأشربته في كياني بطمأنينة عجيبة، فهو منفصل ومتصل معاً، أنا هو وفي الآن نفسه سواه، وكأني أتحدث إلى نفسي بالوجدان من غير لسان، وأتكلم بغير حروف منطوقة ولا لغة مألوفة، وكما لو أني سمعت من يقول:

السلام عليك يوم ولدت.. ويوم تبعث حياً... فسل تعط!

وشعرت كما لو أنّ أسئلة كثيرة قد تقافزت على خاطري مثل قطعان من الماعز البري تهبط سفوح الجبال:

من أنت ومن أين أتيت وماذا تريد، وهل أنت من المستحوذين الظلاميين أم من المتنورين الأطهار، ومن هذا الشيخ المحبّ الذي شغفنا حباً من كثرة ما سمعنا عنه، وما الحق وما الباطل، وما الظلام وما النور، ومتى نرتاح من هذا العناء في جهنم الأرضية، وما شامبالا وأين هي، وهل أنا أحلم الآن وأسألك أم يقظ أراك وأكلمك؟

ورأيت أن هذا الطيف الذي كان نوراً قد اتسع فملأ الكون بلا نهاية، ثم تكثف فكان رجلاً سمح الوجه، هادئ القسمات، كثير التبسم، يقبله القلب بلا تردد، لم أر شبيهاً له في البشر من قبل، وقال لي:

يا يحيى خذ الكتاب بقوة!

فرددت عليه بحال الصمت بلا لسان ينطق ولا صوت:

مولاي إن أعطيتني الكتاب فلا تقطع لي رأسي!

فتبسم من قولي، وقال:

اسمع إذن ما أقول لك، وعيت منه ما وعيت، وغاب عنك ما غاب، ونقلت منه ما نقلت، ونسيت ما نسيت!

لك أن ترحل عن هذه الأرض بالحق حين يئين الأوان، ولا يقطعنّ أحد رأسك، فلقد أعطيتك عهدي .

اعلم يا بني أنه لا يوجد ما يمنع المطلق أن يتجلّى في محدود مع بقاء إطلاقه فافهم، فهو الظاهر والباطن، وقد شغلكم الأدعياء بالباطن ونسوا من هو الظاهر، فعليك أن تتعلم سر (حم) ومعرفة ذات الظاهر فافهم!.

ولا تنشغل بي عن غيري، وكنّي لأنّه لا غيري، ولست أنت بالغير، ولا أنا بالحادث.. فتعلم!

أما عدن المحمية في باطن الأرض، فهي مدينة أبيكم التي وعدت للمتقين، تعددت أسماؤها وهي واحدة، وقد كنتم هناك ذات يوم، ومن يصلح للعودة مجددًا ويرتقي بذاته، يعود إليها، وهي الجنّة الأرضية لأجل مسمّى، ثم تبدّل الأرض غير الأرض، وتموت الأجساد الفانية وتتحلل، وتلبس أنفس الخلق أجساداً تليق بجنان السماوات والأرض، فمن شاء فليصدق ومن شاء فلينكر، ليس عليك هداهم، ولا تذهب نفسك حسرات على ما يصفون في طغيانهم الذي به يعمهون فافهم!

ثم إنّ العداوة لأجل هو - الوقت المعلوم - وليس إلى يوم يبعثون، كما يظنون، وبعدها يكون الذي بينك وبينه عداوة كأنّه

ولي حميم، وذلك حين ينتهي دوره المرسوم له، فعدو جنسكم كان مرّة يدعى قايين ومرّة السامري وله حضور وحظوة في كلّ عصر، وقد يحسبه بعضكم من القديسين المقرّبين لشدّة تضليله واقترابه من المعلمين الكبار وقربه منهم رغم عداوته الباطنه لهم، حتى يأتي أوان ظهوره قريباً في آخر التجسدات وأعلاها كي يعلن مملكته على العالم، فيظنه أكثر الناس نبياً منقذاً ومخلصاً، وما هو إلا بالمهلك فلا تكن عن هذا من الغافلين!

وشعرت كما لو أن - أحمد- يكلمني، ففهم طيف النور الذي ليس بالإنسان وليس سواه، كما بدا لي ما يتلجلج في أعماقي من التساؤلات، فظهر لي في صورة أخرى، وقال لي إنه هو أحمد، ثم جاء في خاطري إنه الشيخ المحبّ الذي عنه يبحثون، وقال لي أيضًا إنه هو كذلك، ووجدتي أنظر إليه تتقلب في سيميائه الوجوه، ورأيت في ذلك أناساً كثراً بعضهم عقلته مثل صديقي محمد، ويوسف المجذوب، وبعضهم قيل لي من هو، وبعضهم غاب عني اسمه ولم أعرفه من قبل أصلاً، وعجبت لأنّ التجليات في الواحد كثيرة، والمباركة له من غير زيادة في أصله وفيرة، سبحان الخالق البارئ المصور، فكلما خطر في بالي صورة لأحد وجدتها عليه قد رُكّبت تركيباً بديعاً حتى أقيدها بناظري، ثم يمحوها خاطري فتتبدل!

وقال لي:

- يا بني إن جاءت الفتنة فالزم بيتك وانتظر الفرج!

قلت له:

- ومن سينتصر في النهاية لقد تعبنا من حكم مملكة الظلام لآلاف السنوات!

فقال لي:

- لو عرفت سر «لا حول ولا قوة إلا بالله»، لأدركت أنه لا نصر ولا هزيمة، ولكنّ العقول قاصرة عن فهم تدبيره، والمدارك غائبه عن تفسير أمره، ولهذا أقول لك - الرحمن على العرش استوى -، فابحث عن عباده المخلصين تصبح معهم من الناجين!

وقال لي:

- ستمر على الناس أوقات صعبة، وسيكون أكثرهم مثل قطيع من الدواب صمّ بكم عمي فهم لا يفقهون، في أجسادهم مضغة سوداء صغيرة، وضعها الظلمانيون كي يعرفوا بها أتباع أميرهم ومريديه وناصريه وعبيده، وكي تمرّ عليهم دابّة الأرض وهي من آلاته العجيبة تمسح على تلك القطعة فتعرف صاحبها وتتحكم به، فاحذر أن يضعوا لك مثلها في جسدك، فتبيع نفسك للرجيم، وتكون معه من الهالكين!

ثم رأيته قد قرب لي طيفاً نورانياً لكائن يشبه الغزال في جماله، والفرس في رشاقته، والثور في ضخامته، لا هو بالآلة ولا بالحيوان، يفهمني إن تكلمت أو صمت، فقلت له:

- من أنت!

فقال لي بلسان الحال:

- من نسل البراق، يسمينا العارفون خيل الله، إن ركبتني أوصلتك مرادك في التوّ والحين، قد جعلنا ربنا لعباده المقربين على هذه الأرض، ومن يفز من بعد في يوم العرض!

ثم نودي عليها:

- يا خيل الله أركبي

فتطامنت لنا وركبنا، ورأيت يوسف المجذوب قد صعد على واحدة منها، وصديقي عاشق الفلك، والشيخ المحبّ يتقدمنا على مركبة عجيبة تجرّها ثمانية من تلك الخيول النورانية، ورأيت الأرض تطوى تحتنا طياً، والمدن تمرُّ مرّ السحاب، عرفت كثيراً ممن زرتها من قبل وجهلت أكثرها، وعجبت لأمري فكلما نظرت إلى شيء، وإن كان بعيداً يصبح قريباً إن خطر في بالي ذلك ثم يبعد، فكأنّي أشاهد الأمر في منظار مقرب، وحتى سمعي صار حاداً فإن رأيت من يعزف أو ينادي أو يتكلم من بعيد ورغبت بسماع كلماته وصلتني في التو، وإن رغبت

بتجاهل هذا يحصل المراد، فقلت في نفسي، هل حصلت لي الترقية التي كانت تحدثنا عنها باتي، ورأيتها خلفي حين مرّ ذكرها في قلبي، وكانت تركب أيضاً واحدة من تلك الأطياف، و تومئ لي وتبتسم، بأنّ ذلك قد آن أوانه!

ثم مررنا بجبال عالية أعقبتها سهول فسيحة، ثم بدأت الأرض تحتنا تتغير في لونها وتضاريسها من شدة الثلج حتى صارت صفحة بيضاء، ونحن في حفظ عن الحرّ والزمهرير، وكنا نتوجه كما جاء في حدسي نحو الشمال، حتى غاب عنّا أيّ عمران، ولم نعد نلمح تحتنا حركة أي إنسان، ثم بدأت جبال الثلوج ووديانه الكثيفة تزداد شساعة وانفساحاً حتى تجاوزناها بسرعة عجيبة وكأنّها طرفة عين، ثم تهلنا حتى رأينا البياض يبدأ بالزوال شيئا فشيئاً، و شاهدنا أشجاراً ضخمة لم أر مثل حجمها من قبل قط، ورأينا قطعاناً من حيوانات عجيبة كنّا نظنها من المنقرضات، ثم طويت تحتنا المسافات بسرعة، وكأنّنا دخلنا في نفق هائل بدأ ضيقاً ثم اتسع حتى ظهر لنا ما يشبه تجمعات من البشر، وما هم بالبشر من شدّة ما مسخوا في أرض قفر متجعدة السطح مغبّرة الأجواء، وكأنّهم الدواب، ويصنعون الرماح والسيوف مثل من يتهيأ للحرب، فقلت:

- من هؤلاء يا معلم؟؟

فقال لنا:

- إنّهم أقوام لا يكادون يفقهون قولاً، محبوسون منذ آلاف السنين، وينتظرون وقت فرجهم بالخروج إلى سطح الأرض كي يعيثوا فيها فساداً حقداً منهم على الناس ورغبة بالانتقام مما جرى لهم، فهم شرّ الدواب التي لا تعقل ولا تسمع ولا ترى، وقال لنا الشيخ بأننا سنرى عوالم كثيرة من ممالك الظلام، قد باعوا أنفسهم لسيدهم الأول الذي ما يزال بينهم من المنظرين، ثم بعد أن تجاوزنا في الرؤية من الأعالي لهؤلاء الأقوام حتى دخلنا في ما يشبه الجنّة من كثرة جمالها في الشجر والأزهار والعمران، محروسة بشدة من كلّ الجهات، لا يقدر على دخولها أحد إلا بسلطان، ورأينا هناك من الصالحين والأولياء الأطهار قد فتحوا لنا البوابات ثم وضعونا في مركبة عجيبة نرى الناس منها ونسمع أصواتهم وهم لا يروننا، وأذنّ مؤذن فينا أن توكلوا على خالق كلّ هذا الجمال، القديم المتعال، ورأينا فيها من أجناس البشر ما لا يحصى قاماتهم أطول منا، وأجسادهم أكثر إشراقاً وشباباً، وكأنّهم قد شربوا من ماء الحياة فلا يبدو عليهم المرض، ولا تبدلات السنوات، كلّ قائم في عمله بكلّ بهجة، ولو وصفت جمال نسائهم ما وسعتني الصفحات، ولا أغنت عنّي العبارات، فكلّ ما هناك هو غير ما أصف لقصور اللغة،

وحيران العقل، ورأينا بينهم من الأقوام الأخرى القديمة التي كانت على الأرض ذات حقب سحيقة، وهم من الذين نجوا من شرور البشر ومن معهم من المعلمين الصالحين، يعمرون أكثر من ألفي سنة، قد وصلوا مرتبة عظيمة في العلوم، والبناء والصناعات التي تجعل حياتهم ميسرة، عندهم مكتبات هائلة تحفظ كل تراث البشر، وما استطاعوا له معرفة من أحوال الكون، وعندهم كتّاب مهرة قد توكلوا بكتابة ما جرى على حقيقته، لا ما أصابه التزوير والبهتان!

وليس هناك ليل ولا نهار، ولا حرارة أو برودة بل اعتدال دائم، وضوء يأتي من كوكب درّي، يدور في فلك سمائهم، فإن رغبوا بالنوم أسدلوا عليهم الستور، ورأيت آلات عجيبة منها ما يشبه الطائرات الصغيرة يركب بها الناس فتطير أو أحياناً تراها تسير على الأرض، وكان بين هؤلاء القوم من هو جالس يتأمل، أو يقرأ في كتاب، أو يناقش أو يرسم أو يعزف الموسيقى، أو يأكل أو يشرب أو يلعب، فلديهم من اللهو والترفيه ما لدينا أضعافًا مضاعفة، ومن كلّ شيء أجمله وأعلاه، قد سبقونا بمئات السنوات في كلّ أمورهم كما بدا لي، إضافة إلى حسن الأخلاق، وسلاسة التعامل، والارتقاء!

وعرفت بأنّ هؤلاء من أخوتنا الذين سيأتون إلينا مناصرين

حين يأتي أوان ذلك من أجل إعمار أرضنا التي فسدت، ونشر العلوم الصحيحة، وأوصونا بالصبر على التبدلات المقبلة التي يرونها تجري رأي العين في القريب العاجل، بضع سنوات أو يزيد فما بعدها إلا الفرج، وقالوا بأنّ خارج أرضهم الشاسعة ممالك كثيرة من الظلمانيين الذين يتهيؤون أيضاً لقتالهم، والسيطرة على مدنهم، واستعبادهم، وأنّ المعركة ستكون فاصلة هذه المرة، فإنّ الصراع قد طال، وأنّ الأمر يجب أن يحسم، وهو أمر ليس باليسير، لكنهم يعرفون بأنّ خالق الأكوان لديه حسن التدبير!

ثم جاء أوان الرحيل، فودعنا أحبتنا بالبكاء، ونحن لا نرغب بمفارقتهم، وقدم لنا كبيرهم هديّة لكلّ واحد منا، وحين أتى دوري قال لي:

– هذا كتاب قد تجد فيه ما يفيدك، تتجدد حروفه، ومعارفه كلما نظرت إليه ولو بعد سنوات، ولا تنقضي علومه أبداً، فإن عدت إلى ديارك فانشر منه شيئاً على الناس، ولا تكلمهم عنه إلا رمزاً، وطرت فرحاً بتلك الهدية العجيبة، ورأيت كما لو أننا عدنا إلى أطياف النور التي على شكل خيول، فركبناها وبدأت من جديد تتبدل تحتنا الأمكنة، وتأتينا بالخاطر أخبار كلّ ما نرى دون أن نسأل، ثم رأيتني وحيداً قد غاب عنّي رفقائي،

وأحسستُ كما لو أنني توقفت عن الطيران، وغامت في عينيّ الأشياء واختلطت الرؤى، ثم شعرت بأنّي على الأرض ممدداً، وصحوت على نفسي داخل خيمة في هزيع الصبح الأخير وحولي صحراء لا تُحدّ، ووجدت يديّ ممسكة بكتاب عليه اسمي، ومكتوب عليه - كتاب الأسرار والأنوار- فأخذت أقرأ ما فيه، ووجدت عجباً، ثم انتبهت إلى حركة خارج الخيمة، ووجدت مجموعة كبيرة من السياح من شتّى الأجناس من الذكور والإناث، وقد طلعت عليهم الشمس، وهم يتململون للاستيقاظ، فأخفيت الكتاب تحت كومة صغيرة من الرمال حتى لا يراه أحد، وقلت سأعود إليه بعد حين، فرحت أبحث بينهم عن رفيقي يوسف المجذوب ومحمد، فلم أعرف لهم خبراً، ثم عدت إلى الخيمة ونبشت الرمال كي آخذ الكتاب، وأستوعب أين أنا وإلى أين أمضي بين كلّ هؤلاء الأغراب، فما وجدت له أثراً!

إشارة وتوضيح

في خريف العام ٢٠١٥ فوجئت برواية منشورة في بيروت تحت عنوان -الفردوس المحرم- ولا تحمل منّي غير اسمي كما يبدو، فلا علاقة لي بها في حقيقة الأمر، إذ كانت هذياناً وتقاطعات واستحضارات من بعض ما قرأته في -كتاب الأسرار والأنوار- وأمور شتّى لا أدري كيف كتبت ومتى، ولا أعرف حقاً من زجّ باسمي فيها وورطني بتحمل وزرها، ولهذا أقول لكم مع سبق الإصرار والترصد والتصيّد أيضاً، وحتى لا يتكرر معي ما جرى في أمر -أبناء السماء- بأنه لا علاقة لي بصاحبها الأصلي في حقيقة الأمر، فأرجو أن لا أؤخذ بجريرته، ولا يسألني أحد من قبل ومن بعد، عما جرى، أو يطاردني ليبحث عن الدكتور جمال وبقية ما في الرواية من النساء والرجال، فإنّي أترك لكم أمر الكنوز والدفائن والمدن التحت

أرضية، والقدرات المخفية، فالأمر كله محض تهيؤات وخيال حسب ما أخبرني به طبيبي النفسي في مستشفى الرشيد بعمّان، فقد كانت موجة الاكتئاب عاتية، والضغوطات عليّ هائلة، ولهذا منحني تقريراً يثبت أنّ ما قد أقوله أو أكتبه لا يعوّل عليه، ولا يؤخذ به من قبل ومن بعد، ولذا جرى التنويه، وبالرحمن المستعان، وعلى أنوار حبيبه التكلان، والسلام!

سيرة مختصرة

يحيى القيسي

- مواليد «حرثا» شمال الأردن ١٩٦٣
- عمل في الإعلام الثقافي وفي الإدارة الثقافية صحفياً ومحرراً ومديراً في الأردن وتونس والإمارات منذ العام ١٩٩٠ وما يزال .
- مؤسس ورئيس تحرير موقع «ثقافات» العربي للفكر والإبداع والفنون

WWW.THAQAFAT.COM

- أنجز ٢٠ فيلماً وثائقياً تلفزياً بعنوان «سيرة مبدع» وأعدّ أفلاما أخرى .

الإصدارات الأدبية:

- أبناء السماء - رواية - المؤسسة العربية للدراسات ٢٠١٠
- باب الحيرة - روآية - المؤسسة العربية للدراسات ٢٠٠٦
- رغبات مشروخة- مجموعة قصصية- عمّان - ١٩٩٦

- الولوج في الزمن الماء - مجموعة قصصية - إربد ١٩٩٠
- حمّى الكتابة - حوارات أدبية - أمانة عمّان - ٢٠٠٨

البريد الالكتروني :

yahqaissi@gmail.com

الفهرس

يا للعجب مما جرى . . .!	9
خيمياء معطّلة	11
غبطة باذخة	19
دفائن محروسة	23
حدائق رمادية	32
أرواح سامية	40
عين ثالثة	48
بحر ميت	54
مذكّرات ممنوعة	61
إكسير نائم	65
ذهب عصملي	72
نهايات مشروخة	77
مسدسات غاضبة	85
أرض مجوّفة	90
أمل مكسور	96
رؤوس مفخخة	100
أحاسيس معدنية	105

حيرة ضارية	111
تجليات متنزّلة	117
خطايا منتظرة	122
حمّى جارفة	128
خلوات مشرقة	134
ممالك خفيّة	140
نشوات عارمة	147
زواحف بشرية	153
فتوحات منامية	159
بروج متربّصة	163
إشارات علوية	175
خيول نورانية	181
إشارة وتوضيح	201